مدرسة التفسير البياني في مصر
منذ دخول الإسلام إلى نهاية القرن الثالث الهجري
(النشأة والتطور)

د/ رانيا محمد عزيز نظمى
استاذالدراسات الاسلامية المساعد كلية الاداب – جامعة دمنهور

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبيه المصطفى الأمين، وعلى آله وصحابته ومتبعى هديه إلى يوم الدين ، قال تعالى :" إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ" (الحجر:9)، يعد القرآن الكريم هو المعين الذى تستقى منه مادة الدراسات الإسلامية مناهجها، ومَنْ يتعمق فى تفسيره، ويبحث عنها قد يتحير؛ لأن مدارس التفسير كثيرة ومتنوعة ما بين التفسير بالمنقول والتفسير بالمعقول ، كمل أن هناك ألوانا أخرى من التفسير، مثل : الاجتماعى والفقهى والصوفى والكلامى، والمتتبع لتاريخ التفسير يجد أن هذه الألوان من التفاسير تحكم أحكامها وعقائدها فى بيان معنى النص القرآني.

مشكلة الدراسة: –

ارتبطت البيئة المصرية بالتفسير البياني للقرآن الكريم ؛ لأن مصر منذ أن أشرق عليها نور الإسلام، وآمن أهلها به، وهم يواصلون جهودهم الفكرية الإسلامية، وكما أن مصر هى موطن البعث لهذا الفكر، وأبرز عبقريته الخالدة التى تدعو إلى القضاء على عصور التخلف من جهة ومن جهة أخرى أن البيئة المصرية عاشت حضارة فجر التاريخ، وهى الحضارة الفرعونية التى قامت على أسس من الدين لا يتبع فكرًا معينًا فى الفكر الإسلامي، وإنما اتبع منهجًا يستشف المعنى القرآنى فى موضوعية وحيادية وفقًا لقوانين الفقه والبلاغة التى يسير عليها النص القرآني؛ لأن معجزة بيانه فى المقام الأول، وتقوم على التذوق الجمالي فى الأساليب والألفاظ، ولقد جذبني بشدة منهج التفسير البياني عدة أسباب ، هى:

أولاً: اتصالاً لمدرسة الأمناء فى إحياء المنهج الأدبي للدرس القرآنى، وتأثراً بأستاذي الصاوي الجوينى الذى أوضح لى جماليات الدرس القرآنى من وجهة نظر الأدب، وأن البيئة المصرية بيئة وجدانية تهتم بالجانب الأدبى أكثر من اهتمامها بالجانب الفكرى، وإن كانت الأفكار تنحصر فى النطاق الإصلاحى والنفسى.

ثانياً: لمَّا كانت طبيعة دراستي فى كلية الآداب تتطلب الاهتمام بالجانب الأكاديمى المنهجى، واستخراج ما فى النصوص من دلالات ذوقية وأدبية وفنية اتجهت إلى التفسير الأدبى حيث كان هذا أقرب صلة رحم لدراسة التفسير، فكان موضوعى جذور مدرسة التفسير البياني في مصر منذ دخول الإسلام إلى القرن الثالث الهجري (النشأة والتطور)

ولما كانت الروحية هى سمة كبرى لملامح الشخصية المصرية– من حيث هى روحانية الدين – متغلغلة فيه أفكاره، وحين أشار مؤرخو الفن إلى أن البيئة المصرية بيئة توحى بالدين، وتلهم العقيدة ، ويؤكد هذه الحقيقة الدكتور الجوينى من خلال دراسته لكتاب " تحت شمس الفكر لتوفيق الحكيم "، حيث يعرض لفكرة البعث، وكيف أنها تنبت من البيئة المصرية، وأوحت بها مظاهرها الطبيعية ، وتركت آثارها على الفن المصرى القديم، إنه يتساءل هل يتصور تفكير مصرى بغير هذه الأرض الخصبة؟ [1] حيث إنه بعد ذلك يؤكد السبب وراء الروحية فى الشخصية المصرية، وهى حرارة الإيمان فى البيئة المصرية، تلك التى نطقت بها فنون المصريين الأقدمين تجملها عبارة توفيق الحكيم حين يعرض لأفكار مصر الثابتة المستوحاة من تربتها وطبيعتها ...، وفكرة أخرى قوة القلب، فبغير قوة القلب، أى قوة الإيمان والحب ما كانت مصر تستطيع أن تبنى هذا الفن العظيم الذى انتصرت به فعلاً على الزمن، ولا تزال تنتصر به عليه فى كل جيل " . [2]

وقسمت الدراسة إلى ثلاثة مباحث:

[1] ملامح الشخصية المصرية فى الدراسات البيانية ، " مصطفى الصاوى الجوينى" ص 68.
[2] تحت شمس الفكر " توفيق الحكيم " ص 78.

المبحث الأول :- مدرسة ابن عباس في التفسير البياني للقرآن الكريم.

المبحث الثاني :- جذور المدرسة البيانية في مصر من القرن الأول إلى القرن الثالث هجريًا

المبحث الثالث :- أعلام التفسير في المدرسة المصرية البيانية من القرن الأول الهجري إلى القرن الثالث الهجري وفيه أربعة مطالب :- 1- عطاء بن دينار الهذلي (ت: 126 هـ).

2- الإمام الشافعي (150 -204 هـ).

3- أبو جعفر النحاس (ت: 338هـ).

4- عبد الله بن وهب (125- 197 هـ).

5- أبو بكر الأدفوى (304 -388هـ) .

مدرسة ابن عباس في التفسير البياني للقرآن الكريم

يعد التفسير الأدبى من العلوم التى كانت لها جذور فى تراثنا الإسلامى منذ القرن الهجرى الأول ونتيجه لتاثر المدرسة المصرية بتفسير ابن عباس لانه تمثل في الخصائص البيانية والأدبية واللغوية في تفسير القران الكريم فكان اقرب صلة رحم وقد استشهد مفسري المدرسة المصرية بابن عباس ولذا يعد الاب الأول لتفسير القران كما ذكر ذلك جولد تسيهر في كتابه مذاهب التفسير الإسلامي وابن عباس دخل مصر مرتين وكان لاهلها عنده احاديث ذكرها المبرد في الكامل وكان طبيعيا جدا ان ينتهز المصريون فرصة وجوده فيسالوه عن معاني القران الكريم غير اننا لم نجد رواية مباشرة عن ابن عباس في التفسير وكان من تلاميذه مجاهدوقد دخل مصرفي أواسط القرن الأول (60-62) واخذ أهلها منه وتتلمذ علي شيوخها مثل عبد الله بن عمرو ومسلمة بن مخلد كما كتب المصريون عنه الداودي في الطبقات (312)، وكتب عنه المحدث المصري الفقيه الثقة جعفر بن ربيعه الكندي (136)، وقد سجل العالم المصري عبد الله بن وهب (197ه)، بعض رواياته في تفسير ه الذي ستتناوله فيما بعد كما جاء الطبري في جامع البيان وكذلك عكرمة تلقي التفسير علي يدي ابن عباسودخل عكرمه مصرفي أواسط القرن الأول وهو في طريقه للمغرب ويروي عن القاريء المصري قباث بن رزين

اللخمي (156ه)، أنه سمع عكرمه يقول سمعت ابن عباس يقول كل سلطان في القران فهي حجة اكان للهدهدة في تفسير سورة النمل كما جاء في تفسير ابن ابي حاتم واكثر المفسرين المصربين الذين نقلوا عن عكرمه عن ابن عباس المتحدث المصري سعد بن عبد الله بن الحكم الذي حدث بمصر ومكة في الجرح والتعديل لابن ابي حاتم وكذلك كذلك حنش بن عبد الله الصنعاني(100ه)، تابعي كبير روي عن ابن عباس وروي المصريون عنه ولقد كانت ثقافته الأدبية أكثر عونًا له على المعالجات اللغوية التى عالج بها لغة القرآن، فهو يفطن للمعنى المقصود من اللفظة المتضادة مثل: لفظة "بلاء" فى قوله تعالى (وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ) (البقرة:49) عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ) "قال نعمة " . [3]

وقد استطاع بهذه الثقافة اللغوية أن يعرض اللفظ الغريب فى القرآن كله بالشرح والتفسير، ويقول السيوطى (ت:911هـ) فى ابن عباس : "ورد عنه ما يستوعب تفسير غريب القرآن بالأسانيد الثابتة الصحيحة ".[4]

وقال ابن عباس فى قوله سبحانه وتعالى : " إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا" (الفتح:1) كنت أقرؤها ولا أدرى ما هى حتى تزوجت بنت مشرح فقال: فتح الله بين وبينك؛ أى حكم الله بينى وبينك .[5]

وكان ابن عباس يميز بين لغة قريش ولغة القبائل الأخرى، ومثال ذلك فى قوله تعالى " أَتَدْعُونَ بَعْلًا" (الصافات:125)، قال ربا بلغة أهل اليمن. [6]

ونجد ابن عباس فى باب المرادفات اللغوية التى تخص المعنى الفقهى من تفسير الآيات، فنجد مثال سورة المائدة قال ابن عباس : لامستم وتمسوهن واللاتى دخلتم بهن والإفضاء : النكاح.

---

[3] تفسير الطبرى جـ 1 ص 217.
[4] السيوطى –الإتقان فى علوم القرآن " جـ1 ص 115.
[5] مشكل القرآن وغريبه لابن قتيبة جـ1 ص 48.
[6] الإتقان فى علوم القرآن –السيوطى جـ1 ص 135.

وأشار بقول ابن عباس هذا إلى أن معنى أربعة ألفاظ فى القرآن بمعنى واحد، وهو النكاح أى الوطء، وعن ابن عباس فى قوله :" أو لامستم النساء" (النساء:43)، قال: هو الجماع ، وعن ابن عباس أن اللمس أو المس والمباشرة والجماع والدخول النكاح ، وعن ابن عباس فى قوله تعالى (وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ) (النساء:21)، قال: الإفضاء :الجماع، وعن ابن عباس قال الملامسة والمباشرة والإفضاء والرفث والجماع نكاح ولكن الله يكني .[7]

وكما أنه لا يكتفى فى باب المرادفات، بل كان حريصًا على الزيادات التفسيرية لإيضاح المعنى، ومثال ذلك قوله تعالى (هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) (آل عمران 163) يقول ابن عباس: " هم درجات عند الله بأعمالهم"، وكذلك فى قوله تعالى " فى الكتاب مسطورًا" قال: مكتوباً وهى لغة حميرية يسمون الكتاب أسطورًا .[8]

ومن الغريب أنه كان يهتم بمعرفة قصة كل اسم أو موطن ذكر فى القرآن، فيقول ابن عباس: " الأحقاف" المذكورة فى الكتاب العزيز رمل فيما بين عمان وحضرموت [9]، وقد لجأ ابن عباس إلى الاستعانة بالشعر فى التفسير، وقد ساعده على ذلك حافظته اللاقطة القوية، واستشهاده بالشعراء إنما جاءه من ثقافته الأدبية، ويتضح هذا من قوله عن ابن أبى ربيعة : هل أحدث المغيرى شيئاً بعدنا؟ " .[10]

وهذا عمر يقول لابن عباس : هل تدون لشاعر الشعراء ؟ فيقول ابن عباس: ومن هو ؟ قال عمر: الذى يقول :

وَلَوْ أَنَّ حَمْدَاً يُخْلِدُ النَّاسَ أُخْلِدُوا وَلَكِنَّ حَمْدَ النَّاسِ لَيْسَ بِمُخْلَـــــــــدِ

فيقول ابن عباس : ذاك زهير .

وأنشد محمد بن مصعب لابن عباس شعراً قاله :

---

[7] السيوطى – الإتقان فى علوم القرآن" جـ 1 ص 135.

[8] السيوطى –الإتقان فى علوم القرآن جـ1 ص 135.

[9] الطبرى –جـ1 ص 275.

[10] الأغانى – أبى الفرج الاصفهانى جـ1 ص 73.

ما أكثـر العلـم ومـا أوسعـه من ذا الـذي يقـدر أن يجـمعـه

إن كنـتَ لا بـد لـه طـالـبًا

محـاولا، فالتمـس أَنفَعَـه [11]

وكان ابن عباس إذا فسر القرآن استولى على مشاعر الناس، وجعلهم يفكرون بقلوبهم ويشعرون بعقولهم، ويقول رجل سمع تفسير ابن عباس لسورة النور إنى لأشتهى أن أقبل رأسه بمعنى من حلاوة كلامه . [12]

قال عبد الله ابن عباس– وقد سأله رجل عن طرق العرب– فقال: "كان الرجل يطلق امرأته تطليقة، ثم هو أحق بها، فإن طلقها اثنتين فهو أحق بها أيضًا، فإن طلقها ثلاثاً فلا سبيل له إليها.

ولذلك قال الأعشى:

أيا خالتى بيني فَإِنَّكِ طـالِقَه كَذاكِ أُمورُ الناسِ غادٍ وَطارِقَـه

وَبيني فقد فارقت غَيرَ ذَميمَـةٍ وَمَوموقَةً منا كما أنتَ وَامقـة

وَبيني فَإِنَّ البَينَ خَيرٌ مِنَ القضاء وأن لا ترى لى فَوقَ رَأسِكِ بارِقَه

وكان ابن عباس يلجأ إلى الشعر بحثًا عن معنى اللفظ القرآنى، يقول ابن عباس:" إذا سألتمونى عن غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر ديوان العرب" .[13]

وقال نافع بن الأزرق لابن عباس : أخبرنى عن قوله تعالى (لا تأخذه سنة ولا نوم) ما السنة؟ قال:النعاس، قال زهير بن أبى سلمى:

لا سنة في طوال الليل تأخـذه ولا ينـام ولا في أمره فند [14]

11 عيون الأخبار –جـ1 ص 37.

12 الإصابة فى معرفة أخبار الصحابة –ابن حجر العسقلانى جـ2 ص 2 ، 8.

13 تفسير القرطبى جـ1 ص 24.

وكان ابن عباس يهتم بالنواحى النفسية فى تفسير النص القرآنى، كما جاء فى تفسير قوله تعالى (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ) (البقرة:70) فيقول ابن عباس :

" لو أخذوا أدنى بقرة اكتفوا بها، لكنهم شددوا فشدد الله عليهم .[15]

وكان ابن عباس يهتم بالنواحي الأدبية ، ويتجنب القول بالنواحي العقلية.

جذور المدرسة البيانية في مصر
من القرن الأول إلى القرن الثالث هجريًا

تشكل القرون الثلاثة الأولى للهجرة مرحلة هامة في حياة الشعب المصري، وتطور المجتمع المصري، ففي خلال هذه الفترة غيروا لغتهم ودينهم، واكتمل ميلاد مصر العربية من سنة 20للهجرة حتي قيام الدولة الفاطمية 358هـ– ويعد القرآن الكريم أهم ما حمل العرب معهم إلى مصر، فهو روح الحضارة الإسلامية.

مثلما كان طبيعيًا أن يجد الفرد المسلم الحاجة إلى حفظ القرآن –كله أو شيء منه– بما هو الكتاب الذى يتضمن أسس سلوكه الفردى والاجتماعى – وهى تلك الحاجة التى أدت إلى خلق ذلك العضو الذى أصبح يعرف فى المجتمع الإسلامى الجديد باسم : القارئ – كان طبيعيًا كذلك أن يجد هذا المسلم الحاجة إلى فهم هذا القرآن، وهى تلك الحاجة التى أدت إلى خلق عضو آخر فى المجتمع الإسلامى أصبح يعرف باسم : المفسر .

وفى غزوة القسطنطينية التى اشترك فيها أهل مصر وأهل الشام ضد البيزنطيين (49هـ) خرج رجل من صفوف المسلمين، فحمل على الروم حتى دخل فيهم، ثم عاد فخرج إلى المسلمين، فصاح الناس؛ سبحان الله! ألقى بيده إلى التهلكة، فقام أبو أيوب الأنصارى– فيما يحدث أبو عمران التجيى وكان ممن شهد الغزوة– فقال : أيها الناس: إنكم لتأولون هذه الآية على هذا التأويل، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، إنه لما أعز الله دينه، وكثر ناصريه قلنا فيما بيننا، بعضنا لبعض سراً من رسول الله صلى

[14] تفسير القرطبى جـ1 ص 25.
[15] الإتقان –السيوطى –جـ1 ص 135.

الله عليه وسلم : إن أموالنا قد ضاعت ، فلو أنا أقمنا فيها فأصلحنا ما ضاع منها ! فأنزل الله عز وجل فى كتابه يرد علينا ما هممنا به :" وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة " (البقرة :195)، فكانت التهلكة أن نقيم فى الأموال ونصلحها فأمرنا بالغزو . [16]

ويرى التابعى المصرى الثقة عبد الرحمن بن حجيرة الخولانى (ت 83 هـ) قاضى مصر وقاصها وصاحب بيت مالها [17]، عن أبى هريرة أن النبى (صلى الله عليه وسلم) قال : فى تفسير الآية 37 من سورة النور " رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله " إنهم هم الذين "يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله "(المزمل :20) .[18]

وحدَّث التابعى المصرى الثقة على بن رباح اللخمى (ت: 114هـ) أن عمر بن الخطاب قال لرجل يتلو الآية 228 من سورة البقرة : " والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهم أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن، إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر " الآية فتلاها الرجل، فقال عمر: إن فلانى ممن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن، وكانت طلقت وهى حبلى فكتمت حتى وضعت [19]، وفى رواية أخرى أن هذه المرأة من قريش وأنها كانت تحث عمر بن الخطاب نفسه، فطلقها تطليقة أو تطليقتين وكانت حبلى، فلما أحست بالولادة أغلقت الباب حتى وضعت. [20]

تشير هذه الأخبار إلى أن التفسير فى تلك المرحلة الأولى من حياته أحاديث متناثرة، وروايات متفرقة تروى فى مناسبة ما كان يسأل أحدهم عن معنى إحدى الآيات ، على أن ذلك لم يمنع وجود أفراد يتمتعون بمستوى ثقافى مرتفع .

عبد الله صالح (137–223هـ) فقيه مصر العظيم الليث بن سعد (ت175ه) صاحب ضياع وثروة واسعة فقد كان يحتاج إلى من يكتب له، وكان ممن كتب له شاب

---

16 ابن عبد الحكم: فتوح : 269 -270 . الترمذى : الجامع :95- 97 . الطبرى : جامع البيان -2 :119 . الحاكم :المستدرك -2 : 275.

17 ابن عبد الحكم : فتوح :235 – الكندى : القضاة : 314 وما بعدها .ابن حجر التهذيب : 6: 160

18 ابن عبد الحكم : فتوح :281.

19 الطبرى- جامع البيان -2 : 271.

20 ابن أبى حاتم –تفسير جـ1 : 192.

دخل في خدمته قبل أن يبلغ العشرين, يدعى عبد الله بن صالح الجهني , ظل يخرج معه إلى الأسفار وإلى الريف طوال عشرين عامًا حتى أصبح سكرتيرًا خاصًا, وصار يلقب بلقب (كاتب الليث).

وأبو صالح – وهذه كنيته – من أولئك المحدثين الذين تضاربت الأقوال في مدى ثقتهم وتناقضت إلى حد بعيد، فبعض النقاد يذمه ويكرهه, ويضرب على حديثه, ويصفه بأنه : مهتم, ليس بشيء , كاذب ليس بثقة , منكر الحديث جدًا, كان أول أمره متماسكاً ثم فسد بأخره, يروى عن الإثبات ما لا يشبه حديث الثقات, عنده من المناكير الكثير من أقوام مشاهير أثمه، وبعضهم يثنى عليه, ويصوى بالكتابة عمن يأمر به وترك ما سواه, ويصفه بأنه ثقة حسن الحديث، ويحدث عن شيخاه : الليث وابن وهب، ويستشهد به البخارى (ت: 256 هـــ) في صحيحه , ويروى له ابن ماجه (ت: 273 هـــ) , والترمذي(ت: 279 هـ) , وجماعة من الأئمة، ويقف آخرون موقفًا وسطًا، فيقررون أن صدوق في نفسه, مستقيم الحديث , إلا أنه يقع في حديثه غلط، بل يحاول بعضهم أن يبرر ما في حديثه من فساد بقصة غريبة تزعم أن كان له جار سوء بينه وبينه عداوة, كان يضع الحديث على شيخ عبد الله بن صالح , ويكتب في قرطاس بخط يشبه خط عبد الله بن صالح وطرحه في داره في وسط كتبه، فيجده عبد الله فيحدث به يتوهم أنه خطه وسماعه، فمن ناحيته وقع المناكير في حديثه . [21]

وبالرغم من أن هذه الأقوال في مجموعها ليست في صالح ابن صالح، فإن الطبرى (ت:310هـ) قد سجل في تفسيره روايات نقلها عنه تكاد تشمل كل الآيات القرآنية بحيث يمكن أن تكون في مجموعها تفسيرًا شبه كامل .

إذا صح ذلك، فاللافت للنظر في هذا التفسير أنه يعتمد على المقل اعتمادًا كليًا بمعنى أن عبد الله بن صالح لا يقوم فيه بأكثر من الرواية، ثم يلفت النظر في هذه الرواية أنها ترجع في الأعم الأغلب إلى مصدر واحد بعينه هو : ابن عباس.

[21] ابن سعد-الطبقات ج7-2-205))

وحتى في ذلك يلفت النظر للمرة الثالثة أن طريق ابن صالح إلى ابن عباس طريق واحد ثابت لا يكاد يتغي , فهو يروى عادة إن لم يكن دائمًا عن معاوية ابن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.[22]

وعن ابن أبي طلحة روى هذا التفسير الذي يذكره صاحب كشف الظنون باسم : تفسير الوالبي مواطنه معاوية بن صالح الحضرمي (ت: 158 هـــ) المحدث الذي اختلفوا على مدى ثقته، والإمام العالم الذي خرج من بلده حمس سنة 125 هـــ إلى المغرب لينتهي به الأمر إلى أن يوليه عبد الرحمن الداخل (ت: 172 هـــ) قضاء الأندلس في دولته التي أسسها هناك سنة 138 هـــ ، ولما حج معاوية حجته الوحيده مر بمصر سنة 154 هـ , فالتفت حوله أهلها يسمعون منه ويكتبون عنه.

وكان ممن كتب عنه حينذاك : الليث بن سعد , عبد الله بن وهب , وأسد ابن موسى المعروق بأسد السنة (ت: 212 هـــ) .

وروى لعبد الله بن صالح , وروى عن أبي حاتم الرازي في التفسير بخاصة , كما روى عن المحدث المصري يحيى بن عثمان بن صالح (ت :282 هـ) ، الذي روى عن عبد الله ... لما كان كل ذلك كذلك فإن من القريب جدًا أن يكون ابن ماجه قد أخذ من هذا التفسير في الكتاب الذي ألفه هو في التفسير .

علينا الآن كخطوة طبيعية أن نحاول أن نعرف كيف كان ذلك التفسير ؟

يتضح مما سبق أن صحيح البخارى هو أقدم مصدر في متناول اليد يمكن البحث فيه عن تفسير ابن أبي طلحة، هذا الذي أخذه البخارى عن عبد الله ابن صالح بمصر, وطبيعي جدًا أن نركز البحث في كتاب التفسير من ذلك الصحيح، وسرعان ما نلحظ أن من منهج البخارى هناك أن يذكر قدرًا قل أو كثير من معاني مفردات، أو غريب السورة التي يروى الأحاديث المتعلقة بمعانيها، فيقول مثلاً في تفسير سورة الطور [23]

وقال قتادة : مسطور : مكتوب .

---

[22] (الذهبي –ميزان الاعتدال) ج3-134.

[23] (ابن ابي حاتم –تفسير 1-11:)

وقال مجاهد : الطور . الجبل بالسيريانية . رق منشور : صحيفة . والسقف المرفوع : سماء . المسجور : الموقد .

وقال الحسن : تسجر حتى يذهب ماؤها فلا يبقى فيها قطرة .

وقال مجاهد : ألتناهم : نقصنا .

وقال غيره : تمور : تدور . أحلامهم : العقول .

وقال ابن عباس : البر : اللطيف . كسفًا : قطعًا . المنون : الموت .

وقال غيره : يتنازعون : يتعاطون (البخاري صحيح 6-247).

ومن الواضح أن هذا التفسير تفسير لغوى بحث غاية في الإيجاز .

– ما ننسخ : نبدل – أو ننسها : نتركها فلا نبدلها – مثابة : يثوبون إليه ثم يرجعون – حنيفًا: حاجا – شطره : نحوه – فلا جناح : فلا حرج – خطوات الشيطان : عمله – أهل به لغير الله: ذبح للطواغيت – ابن السبيل : الضيف الذي ينزل بالمسلمين – إن ترك خيرًا : مالا – جنفًا : إثمًا – حدود الله .. الخ [24].)

وأخيرًا فإن من المفارقات الغريبة أن يكون عبد الله بن صالح المحدث غير الدقيق صاحب أصدق تفسير لابن عباس, وإذا كان هناك من سبقه إلى نقل شيء من هذا التفسير إلى مصر وتمثيل المدرسة المكية بها فإن ابن صالح قد فعل ذلك بدرجة من القوة لم يسبق إليها.

وقد كذبه رجال الحديث, ووصفوه بأنه أحد التلفى, ليس بثقة متروك, لا تحل الرواية عنه, كان يضع الحديث, وكان يسرقه .

لعله آخر المفسرين العظام في الفترة التي ندرسها, ذلك هو : أبو جعفر النحاس (338هـ, أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادى , والذي تتلمذ على كبار الأساتذة المصريين، فأخذ التفسير عن إسماعيل المرادى, والذي تتلمذ على كبار الأساتذة المصريين فأخذ التفسير عن بكر بن سهل الدمياطي(ت: 289هـ) , والحديث عن النسائي الذي عاش في مصر منذ عام 264هـ تقريبا حتى 302هـ , وقراءة ورش

[24] (الطبري –جامع البيان 1-87-106-246-247)

عن أبي بكر بن سيف (ت: 307هـــ) , والفقه عن رئيس الأحناف المصريين أبي جعفر الطحاوى (ت: 321هـ) .[25]

هذا , وحرص أبو جعفر على أن يسافر إلى بغداد عاصمة الدنيا حينذاك علما وأدبا وفنا – حيث تتلمذ في اللغة والنحو والقراءات على كبار الأساتذة من مثل : الزجاج(ت: 311 هـــ) , الأخفش الأصغر (ت: 315 هـ) , نفطوية (ت: 323هـ) , أبي بكر الداجوني (ت :324هـ), ابن الأنباري (ت:328هـ) (ت:577هـ)

كان التتلمذ على أساتذة العصر هؤلاء إجازة كافية ليجلس أبو جعفر في مصر مجلس الأستاذ يحاضر ويؤلف في العلوم التي أخذها عنهم، وما بقي لنا من مؤلفاته التي يقال إنها تجاوزت الخمسين، أو من أسمائها , يدل على تمكنه من علوم اللغة والنحو والقرآن، فهو قد شرح المعلقات السبع , والمفضليات , وعشرة دواوين, وأبيات كتاب سيبويه، وألف في النحو أكثر من كتاب، كما ألف في الأدب وتاريخه, وفي تفسير القرآن وعلومه .

غير أن ابن زيد يبدو وكأنه يتحدث بلسان التصرف حين يحاول تحديد الخيرات المذكورة في الآية 61 من سورة المؤمنون : ((أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون)) بأنها: المخافة , والوجل , والإيمان , والكف عن الشرك بالله .[26]

وهكذا الذي لا يعتمد على النقل إلا في حالات قليلة ليعتمد بصفة أساسية على الرأي مستهديًا في ذلك بالاستعمال اللغوي , والاستعمال القرآني , والتحليل البياني , ومعرفة أسباب النزول, ومعرفة النسخ , والرجوع إلى الوقائع التاريخية .

على أن ذلك ليس هو كل ما يكون منهج ابن زيد في التفسير فإن له إلى جانب ما مضى اتجاهات بعينها تتمثل في العناية بالمسائل الكلامية كالقدر, والوعظ , والقصص وبخاصة ما يعرف باسم الإسرائيليات .

---

[25] (ترجمته –من الأنساب للسمعاني ه-ب-ياقوت – معجم الأدباء-ابن –خلكان-بروكلمان تاريخ الأدب العربي (.

[26] أبو جعفر النحاس-معاني القرآن.

وأيا كان الأمر فإننا إذ نفرغ من تفسير ابن زيد نكون في الواقع قد فرغنا من تفسير ابن وهب, أو من الجزء الأكبر منه إذا شئنا الدقة, فقد سبق القول بأن ابن وهب جلس إلى ابن زيد في الجناب الأكبر منه 90 % ومن أقوال مفسرين آخرين أشرنا إليهم فيما مضى. (الطبري –جامع البيان ص303–306)

واستكمالا لدراسة تفسير ابن وهب لا بد لنا على حال من النظر في تلك الروايات الأخرى التي ضمنها تفسيره، والتي تمثل الجانب الأصغر 10 % منه، وهي تتكون من روايات عن النبي, وعن الصحابة : ابن مسعود (ت: 32 هـــ) وعلى (ت: 40هـــ) , عائشة (ت: 58هـ), ابن عباس (ت: 68هـــ) .

وابن عمر (ت: 74 هـــ)، وتدخل هذه الروايات جميعها في التفسير بالمأثور، وفي التفسير بالرأي روى ابن وهب عن : عبد الله بن الزبير (ت: 73 هـــ) وسعيد بن المسيب (ت: 94هـ)،والحسن البصري (ت: 110هـــ), ومحمد بن كعب القرظي (ت: 117هـــ)، يزيد بن أبي حبيب (ت 128)، وعمر مولى غفرة (ت: 145 هـــ) , سفيان الثورى (ت: 161 هـــ).

وأخيرًا يأتي الحديث عن تفسير ابن وهب إلى نهايته، وإذا كنا قد ذكرنا من قبل أن تفسير عطاء بن دينار الهذلي (ت: 126هـ) يمكن أن يعد –بما هو أول تفسير مدون – كامل – البداية الفعلية للمدرسة المصرية في التفسير, فإن تفسير ابن وهب يمثل نضج هذه المدرسة, فنحن نقف فيه على أرض ثابتة يغمرها ضوء ساطع إذا نجد بين أيدينا تفسيرًا كاملاً , معروف المصادر واضح المنهج، وطبيعي أن تكون قيمة هذا التفسير الذاتية أهم عوامل قدرته على الاحتفاظ بالبقاء، ولذلك حرص يونس بن عبد الأعلى (ت: 264 هـــ) تلميذ ابن وهب على أن يأخذه كاملاً عن أستاذه، ولما زار الطبري مصر سنة 253 هـــ – وكان يونس قد انتهت إليه رئاسة العلم بمصر وعلو الإسناد في الكتاب والسنة – أخذ هذا التفسير عن يونس مثلما أخذ عنه قراءة نافع وقراءة حمزة، وإذا كانت تراجم الطبرى لم تنص على أنه أخذ تفسير ابن وهب هذا عن يونس فعن تفسير الطبرى نفسه – جامع البيان – يعني عن ذلك النص بذلك الإسناد الذي يتكرر فيه مئات المرات قائلاً بلسان الطبرى : (حدثني يونس بن عبد الأعلى قال : حدثني ابن وهب قال : حدثني

عبد الرحمن بن زيد : ....) مع تغيرات طفيفة لا تؤثر بحال في تقرير حقيقة أن الطبرى أخذ عن يونس مباشرة روايات التفسير التي أخذها يونس مباشرة عن ابن وهب الذي أخذها بدوره مباشرة عن ابن زيد، وبالرغم من أنه يشار إلى تفسير عبد الرحمن بن زيد كأحد التفسيرات التي ضمنها الطبرى تفسيره الكبير دون أن يشار إلى تفسير ابن وهب فإن ذلك لا يعني أن الطبرى جلس إلى يونس ليأخذ عنه تفسير ابن زيد وحده، فالطبرى يروى لابن وهب عن تلاميذ مصريين غير يونس , مثل أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، ابن أخي ابن وهب (ت: 264هـــ) وبحر بن نصر الخولاني (ت: 267هـــ)، والربيع بن سليمان المرادى (ت: 270 هـ) هذا إلى أن تفسير ابن وهب – على مابيننا من قبل – لم يكن في جملته شيئا آخر سوى تفسير ابن زيد، وقد تسفر المقارنة الدقيقة بين تفسير ابن وهب وتفسير الطبرى على أن الطبرى قد تأثر إلى حد بعيد بمنهج ابن وهب في التأليف واقتدى به في تأليف تفسيره الكبير الذي ظل يميله من 283 إلى 290 هـ.

وقد ربط تفسير ابن وهب بين المدرسة المدنية التي ينتمي إليها، والمدرسة المصرية التي يمثلها مهيئًا لمدرسة المدينة أن تظهر في ميدان التفسير بمصر، وبذلك لعب ابن وهب في التفسير نفس الدور لعبة ورق في القراءة، وليس مصادفة على أي حال أنهما متعاصران : (ورش : 110 – 197 هـــ , ابن وهب : 125–197 هـــ) . وكذلك قد كان الأمر في الحديث والفقه اللذين انتمت مصر فيهما حينذاك إلى المدينة كذلك وفقًا لتلك الظاهرة العامة التي أشرنا إليها من قبل وفسرناها بسيادة المدينة روحيًا وثقافيًا حينذاك .

– المدرسة المصرية والتفسير البياني للقران الكريم

المبحث الأول:عطاء بن دينار الهذلي (ت: 126 هـ) :

طلب الخليفة عبدالملك بن مروان (ت: 86 هـ) من التابعي الكوفي الزاهد سعيد بن جبير الذي وصف بأنه كان أعلم التابعين بالتفسير [27] ، فكانوا يسألونه عنه ،

[27]) السيوطي الإتقان 2-128-ابن العماد شذارات الذهب 1-108)

ويقرؤونه عليه[28]، ويأخذونه عنه، والذي ضرب الحجاج بن يوسف عنقه عام 94 هـ؛ لأنه اشترك في ثورة ابن الأشعث (83 هـ) وحرض القراء على الاشتراك فيها .. تقول الرواية إن عبد الملك طلب من هذا العالم الثائر الذي رفع راية العصيان ضده فيما بعد أن يكتب له تفسيرًا للقرآن ، ففعل، ولأمر ما وضع هذا التفسير في الديوان حتى عثر عليه تابعي مصري ثقة، من سكان الحمراء أحد أحياء الفسطاط، هو عطاء بن دينار الهذلي (ت: 126 هـ) فأخذه فأرسله عن سعيد بن جبير.

يصف القاريء المصري الكبير أحمد بن صالح (ت: 248 هـ) عطاء بن دينار بأنه من ثقات المصريين، ثم يضيف قائلاً : وتفسيره فيما يروى عن سعيد بن جبير (صحيفة) ، وليست له دلالة _ أو وليس فيها مايدل _ على أنه سمع من سعيد بن جبير، كما يصفه الإمام أبو حاتم الرازي (ت: 277 هـ) الذي زار مصر حوالي سنة 215 هـ بأنه صالح الحديث إلا أن التفسير أخذه من الديوان .. وجده في الديوان فأخذه فأرسل عن سعيد بن جبير . [29]

واضح أن هذين العالمين الكبيرين يحسنان الرأي في ابن دينار، ولكنهما يأخذان على تفسيره أن نقله لم يتم عن طريق السماع المباشر، وإنما تم عن طريق النقل الكتابي وهو ما يعرف في مصطلح الحديث بالوجادة، أي أخذ العلم من " صحيفة " من غير سماع، ولا إجازة ولا مناولة . وقد منع من العمل بالوجادة كثير من الفقهاء والمحدثين، أو أكثرهم ، فيما حكاه بعضهم، ونقل عن الشافعي وطائفة من أصحابه جواز العمل بها، وقطع بعض المحققين من أصحابه في الأصول بوجوب العمل بها عند حصول الثقة به، ولما كان عطاء بن دينار ثقة _ وثقة أحمد (ت: 354 هـ) في الثقات، وقال النسائي (ت: 303 هـ) : ليس به بأس _ فإن لنا أن نتوقع أنه لم يكن ليروى هذا التفسير مالم يكن متأكدًا من أنه تفسير ابن جبير فعلاً، يقوى هذا أن الخليلي (ت: 446 هـ) صاحب " الإرشاد

[28] (ابن سعد الطبقات-6-186).
[29] (السمعاني-الأنساب208-الذهبي ميزان الاعتدال) 3-70

في علماء البلاد " أشار إلى هذا التفسير بما يوثقه، فقال : وتفسير عطاء بن دينار يكتب ويحتج به .[30]

لم يسجل الطبري في تفسيره سوى روايات قليلة جدًا من هذا التفسير لا تصلح لإعطاء فكرة ذات قيمة عنه، غير أننا لحسن الحظ نجد منها قدرًا وافرًا في الجزء الأول والجزء السابع اللذين بقيا لنا من تفسير الحافظ الناقد عبدالرحمن بن أبي حاتم الرازي (ت: 327 هـ)صاحب كتاب الجرح والتعديل،والذي زار مصر مرتين: الأولى سنة 255 هـ مع والده ، والثانية بنفسه سنة 262هـ) الخطيب بغداد10.

وعلينا الآن أن نحاول التعرف على تفسير عطاء _ أو ، في الأصح ، ابن جبير _ في حدود ما يسمح به ما نقله منه ابن أبي حاتم .

الإسناد الرئيس السائد الذي يروى ابن أبي حاتم عن طريقه هذا التفسير هو : ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة : حدثنا يحي بن عبدالله بن بكير : حدثنا ابن لهيعة : حدثني عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير: .....

وهذا الإسناد يعني في وضوح أن عطاء جلس يحدث بهذا التفسير في مصر بعد أن حصل عليه فسمعه منه _ فيمن سمع _ المحدث المصري الشهير عبدالله بن لهيعة (ت: 174 هـ)، ثم مضى ابن لهيعة يحدث به بدوره فسمعه منه _ فيمن سمع كذلك _ المحدث المصري الآخر يحيي بن عبد الله بن بكير (ت 231 هـ)، وفي سنة 228هـ قدم مصر الإمام الرباني، المتقن ، الحافظ، المكثر، الصادق أبو زرعة الرازي عبيد الله بن عبد الكريم (ت: 264 هـ)، وكان ابن بكير أحد _ وربما أهم _ من جلس إليه العالم الشاب القادم من الري من الشيوخ المصريين، وفي خلال جلوسه إليه، وسماعه منه، أخذ عنه _ فيما أخذ _ التفسير موضوع البحث، فلما التقى ابن أبي حاتم بأستاذه ومواطنه وابن خالة والده أبى زرعة، وتتلمذ عليه، سمع منه _ فيما سمع _ هذا التفسير ليسجله في

[30] (ابن حجر -التهذيب 7-199)

التفسير الذي ألفه عندما سأله جماعة من إخوانه إخراج تفسير القرآن مختصرًا ..... فتحرى إخراجه بأصح الأخبار إسنادًا وأشبعها متنًا .[31]

غير أن ابن بكير لم يكن المحدث الوحيد الذي سمع ذلك التفسير من ابن لهيعة ليصل عن طريقه آخر الأمر إلى ابن أبي حاتم، فلقد سمعه من ابن لهيعة أيضًا: الحافظ المروزي عبد الله بن المبارك (ت: 181 هـ) الذي رحل سنة 141 هـ فلقى التابعين وأكثر الترحال في طلب العلم ودخل مصر فيما دخل من البلاد.

كما سمعه المحدثان المصريان : أبو الأسود النضر بن عبد الجبار (ت: 319 هـ) وسعيد بن أبي مريم (ت: 224 هـ)، وسمعه أبو هارون البكاء، ورواه عنه كذلك : الفقيه المصري حيوة بن شريح التجيبي (ت: 158 هـ) ، والمحدث المصري سعيد بن أبي أيوب (ت 161 هـ). [32]

حصل ابن أبي حاتم إذن على تفسير ابن جبير من أكثر من طريق، وإن ظل الطريق الأول هو الطريق الرئيسي دائمًا، والذي يؤخذ من هذا على أي حال هو أن عطاء ابن دينار ما إن أحضر هذا التفسير إلى مصر حتى تناقله عنه المحدثون الذين كانوا _ باستثناء واحد أو اثنين _ من المصريين جميعًا، وإذا كان الفضل يرجع إلى ابن حاتم في تسجيل هذا التفسير وصيانته ثم الضياع، فإنه يرجع في الدرجة الأولى إلى العلماء المصريين الذين حفظوه وتناقلوه حتى وصل إلى ابن أبي حاتم نفسه.

وأيا كان الأمر فإن الخطوة الطبيعية التالية هي النظر في منهج هذا التفسير.

---

[31] (ابن أبي حاتم-تفسير 1-13(

[32] (الطبري –جامع البيان 7-11-9-160

******

أول ما يلفت في تفسير ابن جبير أنه تفسير شخصي، فهو لا يعتمد فيه على غير فهمه الخاص إلا في حالات شديدة الندرة كما فعل في تفسير الآية 68 من سورة الفرقان : " ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق " إذ قال : يعني : نفس المؤمن، ثم استشهد بالحديث الذي يقول النبي (ﷺ) فيه : إنما أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله، فإذا قالوها حرمت دماؤهم إلا بحقها وحسابهم على الله، قالوا : يانبي الله : وماحقها ؟ قال : النفس بالنفس، والثيب الزانية ، والمرتد عن الإسلام ، والتارك لدينه بعد إيمانه المفارق للجماعة .[33]

وإذ يفعل ابن جبير ذلك يتوخى البساطة التامة والوضوح الشديد في تفسير الألفاظ والآيات، فلا ذكر لوجوه القراءات، ولا استشهاد بالاستعمالات اللغوية، ولا مناقشات لفظية، ولا خلافات نحوية، ولا مجادلات كلامية، ولا نكات بلاغية، وإنما مجرد إعطاء المعنى اللغوي للمفردات.فمن أمثلة ذلك في:

[33] (ابن أبي حاتم-7-219-220)

سورة البقرة:

- " هدى للمتقين " (2) : تبيان للمتقين .

- " ذلك خير لكم " (54) : أفضل.

- " فجعلناها نكالا لما بين يديها "(66):من بين يديها ، من بحضرتها يومئذ من الناس .

- " تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان " (85) : بالإثم يعني : المعصية .

- " وما تقدموا لأنفسكم من خير" (110) يعني : ما عملوا من الأعمال من الخير في الدنيا.

- " مثابة للناس " (125) يقول : مجتمعًا للناس .

- " لها ما كسبت " (134) يعني : ما عملت من خير أو شر.

- " وآتى المال " يعني : أعطى المال " على حبه " يعني : على حبه المال " ذوي القربى " يعني : قرابته " والسائلين ، وفي الرقاب " يعني : فكاك الرقاب " وأقام الصلاة " يعني : وأتم الصلاة المكتوبة " وآتى الزكاة " يعني : الزكاة المفروضة " والموفون بعهدهم إذا عاهدوا " يعني: فيما بينهم وبين الناس (177).

- " فله عذاب أليم " (178) يعني " وجيع .

- "يمحق الله الربا " (276) يعني : يضمحل " ويربي الصدقات " يعني : يضاعف الصدقات . [34]

سورة آل عمران:

- " هن أم الكتاب " (7) يقول : أصل الكتاب، وإنما سماهن أم الكتاب؛ لأنهن مكتوبات في جميع الكتب.

[34] (المصدر السابق-1-76)

- " الصابرين " يقول : على أمر الله " والصادقين " قال : في إيمانهم ، " والقانتين " يعني : المطيعين لله فيما أمرهم " والمنفقين " يعني " من أموالهم في حق الله " والمستغفرين بالأسحار " يعني : المصلين بالأسحار (آية : 17).

سورة المؤمنين:

- " وكنا قوما ضالين " (106) يقول : جاهلين.

سورة النور:

- " لا تأخذكم بهما رأفة في دين الله " (2) يعني : في حكم الله الذي حكم على الزاني.

- " إن الذين جاءوا بالإفك" يعني : بالكذب " عصبة منكم " يعني : عبد الله ابن أبي المنافق، وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش. " لا تحسبوه شرا لكم " بل هو خير لكم " : لكنكم تجزون على ذلك " لكل امريء منهم " يعني : من خاض في أمر عائشة " ما اكتسب من الإثم " يعني : على قدر ما خاض فيه من أمرها . " والذي تولى كبره " يعني : عظمة . يعني : الذي تولى تلك الخطيئة بنفسه ، وهو أعظمهم إثمًا عند الله عز وجل ، هم المؤاخذون به، فإذا كانت خطيئة من المسلمين فمن شهد وكره فهو الغائب، ومن غاب ورضى فهو مثل الشاهد (آية : 11).

سورة الفرقان :

- " وكان الكافر على ربه ظهيرا " (55) يقول : عونًا للشيطان على ربه بالعداوة والشرك .

- " قل ما أسألكم عليه من أجر " (57) يقول : لا أسألكم على ما جئتكم به أجرًا.

- " وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما (63) يعني : السفهاء من الطفار .

- " واجعلنا للمتقين " يعني : الذين يتقون الشرك" إماما " يعني : اجعلنا أئمة في الخير نعبدك ربنا . فأخبر بثوابهم (آية : 74) .

سورة النمل:

- " نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي " يقول : أتعرف السرير " أم تكون من الذين لا يهتدون " يقول : أم تكون من الذين لا يعرفون . (آية : 41).

سورة القصص:

- " وجد عليه أمة من الناس (23) يقول : قومًا.
- " قالت : إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا " (25) : ليطعمك.
- ويدرءون بالحسنة السيئة " (54) يعني : يردون معروفا على من يسيء إليهم .
- وفي الآيات التي تتسم بشيء من الصعوبة مثل الآيات الفقهية، أو آيات الأحكام ، لاتفارق ابن جبير نزعته إلى البساطة والوضوح. فيقول مثلا في تفسير الآيات 180 _ 182 من سورة البقرة والتي تتحدث عن الوصية:

" الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين " يقول : تلك الوصية حق على المتقين . " فمن بدله " يقول : الأوصياء . يقول : من بدل وصية لميت " بعدما سمعه " يعني إثم ذلك " على الذين يبدلونه " يعني : الوصي ، وبريء منه الميت، " إن الله سميع عليم " يعني: من الميت .. " أو إثما " يعني : أو خطأ فلم يعدل .. " إن الله غفور رحيم " يعني : للوصي حين أصلح بين الورثة . " رحيم " يعني : رحيمًا به خبيرًا به حيث رخص له في خلاف جور وصية الميت .

وفي آيات الطلاق يفسر ابن جبير الآية 233 من السورة نفسها كالآتي:

" والوالدات يرضعن أولادهن " : وهو الرجل يطلق امرأته وله منها ولد ، فهي أحق بولدها من غيرها ، فهن يرضعن أولادهن .

" لمن أراد أن يتم الرضاعة " يعني : يكمل الرضاعة.

" وعلى المولود له " يعني : الأب الذي له ولد.

" رزقهن " يعني : رزق الأم.

" لا تكلف نفس إلا وسعها " يقول : لا يكلف الله نفسًا في نفقة المراضع

" لا تضار والدة بولدها " يقول : لا يحمل الرجل امرأته على أن يضارها فينتزع ولدها منها وهي لا تريد ذلك.

" ولا مولود له بولده" يعني : الرجل . يقول : يحمل المرأة إذا طلقها زوجها أن تضاره فتلقى إليه ولده مضارة له.

" فإن أرادا فصالا " يعني : الأبوين ، فإن أرادا أن يفصلا الولد عن اللبن دون الحولين.

" فلا جناح عليكم " يعني : الأبوين ، فإن أرادا أن يفصلا الولد عن اللبن دون الحولين .

" فلا جناح عليكم " يعني : لاحرج على الإنسان أن يسترضع لولده ظئرا ويسلم لها أجرها ، ولا كسوة لها ولا رزق _ فذلك له.

" فلا جناح عليكم إذا سلمتم لأمر الله " يعني : في أجر المراضع.

" ما أتيمتم بالمعروف " يقول : ما أعطيتم الظئر من فضل على أجرها .

" واتقوا الله ، واعلموا أن الله بما تعملون بصير " : " واتقوا الله " يعني : لا تعصوه. ثم حذرهم فقال : " إن الله بما تعملون بصير " يعني : بما ذكر عليم.

وفي الآيتين 282 _ 283 _ آيتي الدين _ من السورة نفسها مثال آخر للتفسير الفقهي عند ابن جبير:

" وليكتب بينكم " بين البائع والمشتري " كاتب بالعدل " يعني : يعدل بينهما في كتابه، لا يزاد على المطلوب ولا ينقص من حق الطالب، " ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله " الكتابة وترك غيره .... " وليملل الذي عليه الحق " يعني : المطلوب . يقول : ليمل ما عليه من الحق على الكاتب من حق المطلوب ... " ولا يبخس منه شيئا " يقول : لا ينقص من حق الطالب شيئًا . " فإن كان الذي عليه الحق " يعني : المطلوب " سفيها " : السفيه : الجاهل بالإملاء ، " يعني : لا يحسن " أن يمل هو " قال : أن يمل ما عليه " فليملل وليه بالعدل " : فليملل ولي الحق حقه بالعدل ، يعني : الطالب ، ولا يزيد شيئا . " واستشهدوا " يعني : على حقكم " شهيدين من رجالكم " يعني : مسلمين أحرارًا ..... " أن تضل إحداهما " يقول : أن تنسى إحدى المرأتين الشهادة " فتذكر إحداهما الأخرى " يعني : تذكرها التي حفظت شهادتها .... " ولا تسأموا " يقول: لاتملوا " أن تكتبوه صغيرًا أو كبيرًا إلى أجله " يعني : أن تكتبوا قليل الحق وكثيره إلى أجله؛ لأن الكتاب أحصى للأجل

والمال . " ذلكم " يعني : الكتاب " أقسط عند الله " يقول : أعدل عند الله ، " وأقوم " يعني : وأصوب للشهادة، " وأدنى ألا ترتابوا " يقول : وأجدر ألا تشكوا في الحق والأجل والشهادة إذا كان مكتوبًا. ثم استثنى فقال : " إلا أن تكون تجارة حاضرة " يعني: يدا بيد " تديرونها بينكم " قال : ليس فيها أجل " فليس عليكم جناح " يعني : حرد " ألا تكتبوها " يعني التجارة الحاضرة . " وأشهدوا على حقكم على كل حال ... " وإن تفعلوا " يعني : إن تضاروا الكاتب أو الشاهد وما نهيتم عنه " فإنه فسوق بكم " . " واتقوا الله " : ولا تعصوه فيهما ... " والله بكل شيء عليم . يعني : من أعمالكم . " وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا " يعني: لم تقدروا على كتابة الدين في السفر " فرهان مقبوضة " يقول : فليرتهن الذي له الحق من المطلوب . " فإن أمن بعضكم بعضا " يقول : فإن كان الذي عليه الحق أمينا عند صاحب الحق، فلم يرتهن لثقته وحسن ظنه " فليؤد الذي أؤتمن أمانته " يقول : ليؤد الحق الذي عليه إلى صاحبه، " وليتق الله ربه " .

" ولا تكتموا الشهادة " يعني : عند الحكام . يقول من أشهد على حق فليقمها على وجهها كيف كانت . " ومن يكتمها " يعني : الشهادة ، ولايشهد بها إذا دعي لها " فإنه آثم قلبه " . " والله بما تعلمون عليم " يعني : من كتمان الشهادة وإقامتها عليهم.

يفسر ابن جبير القرآن إذن وفقًا لفهمه الذاتي المستمد من المعنى اللغوي المباشر في أبسط صورة وأوضحها، وقد هيأ له هذا أن يعبر عن وجهة نظر خاصة لعله يتفرد بها، وتفسيره الآيات الآتية من سورة البقرة مثال لذلك :

- " فلا خوف عليهم " يعني : في الآخرة " ولاهم يحزنون " يعني : لا يحزنون للموت (آية : 38) .
- " ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا " (41) : إن آياته كتابه الذي أنزل إليهم، وإن الثمن القليل هو الدنيا وشهواتها .
- " وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان " (53) : علم الكتاب وتبيانه وحكمته.
- " من أسلم وجهه لله " (112) : من أخلص دينه.
- " فاذكروني أذكركم " (152) : يقول اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي أو برحمتي.
- " فيهما إثم كبير " (219) : لأن في شرب الخمر والقمار ترك الصلاة وترك ذكر الله .

ويدخل في هذا الاتجاه تلك المعاني الثابتة التي تدور في تفسير ابن جبير دون أن تتغير بما يدل في وضوح على أنها مفاهيم معينة انتهى إليها هو وارتضاها، وأصبح معروفًا بها ، وأصبحت معروفة به ، حتى ليمكن القول بأن ابن جبير كان له قاموسه القرآني الخاص الذي نقدم فيما يلي أمثلة منه :

- هدى : تبيان.
- مؤمنين : مصدقين .
- يؤمن بالله : يصدق بتوحيد الله .
- خالدون : لا يموتون.
- بكل شيء عليم : من أعمالكم عليم.
- الرحيم : رحيم بهم بعد التوبة.
- ويروى من أهل مكة عن : ابن عباس (ت: 68 هـ) ، عبدالله ابن الزبير (ت: 73ه) ، عبيد بن عمير (ت: 77 هـ) ومجاهد (ت: 103 هـ) . عطاء بن أبي رباح (ت:114 هـ)، وعمرو بن دينار (ت: 126 هـ) .

- وهنا لا يمكن أن يفوتنا اختفاء عكرمة من مدرسة ابن عباس المكية التي أخذ عنها ابن وهب، وهو أمر مقصود لاشك، ذلك بأن عكرمة ، بالرغم من امتيازه كمفسر، قد تكلم الناس فيه، ولكن لرأيه لا لروايته،فهو قد اتهم بأنه كان يرى رأى الخوارج اتهامًا يكاد يرقى إلى مستوى الإجماع مع اختلاف فرعى فيما إذا كان من أتباع نجدة بن عامر (ت: 69 هـ) أو من أتباع عبدالله بن الصفار، وينسب إليه أنه المسئول عن إدخال مذهب الخوارج إلى المغرب موطنه الأصلي، وأنه مر بمصر وهو في طريقه إلى المغرب فتلبث بها قليلاً ثم واصل المسير، والذي يعنينا في هذا المقام هو أن انتحال عكرمة رأى الخوارج كان له أثر بالغ السوء في نظرة مالك إليه فيما بعد، فقد أعرض عنه ، ولم يذكره، ولم يره ثقة ، ورأى ألا يقبل أحد حديثه ، بل أمر ألا يؤخذ عنه، لذلك كله يبدو طبيعيا جدًا أن يقاطع ابن وهب _ وهو تلميذ مالك البارز في مصر _ روايات عكرمة في التفسير.

- ثم نواصل الحديث عن مصادر ابن وهب في تفسيره لنجد أنه روى من أهل أبي السمح دارج (ت: 126 هـ) ، يزيد بن أبي حبيب (ت: 128) ، عبيد الله بن أبي جعفر (ت: 136هـ) وعمرو بن الحارث (ت148).

- اعتمادًا على هذه الإحصاءات التي لاتزعم لها الحصر ولا الشمول ، وإن كنا نطمئن تمامًا إلى أنها تمثل الإتجاهات السائدة تمثيلاً حقيقيًا ، يمكن القول بأن ابن وهب قد جمع في تفسيره بين مدارس التفسير في الحجاز والعراق والشام ومصر.

- غير أن اعتماد ابن وهب على هذه المدارس جميعها لا يعني أنه اتخذ منها موقفًا واحدًا ، ولا أنه أولاها كلها عناية متماثلة، فمن الواضح جدًا أن اعتماده على مدرستي العراق والشام قليل.

- بفحص روايات ابن وهب عن ابن زيد يبدو واضحًا كل الوضوح أنه قصد ذلك المفسر قصدًا ، وجلس إليه بهدف محدد هو أن يأخذ عنه التفسير، مثلما جلس إلى مالك ليأخذ عنه الفقه، وإلى نافع ليأخذ عنه القراءة، تشهد بذلك أسانيد الروايات في وضوح كاف، فكثيرًا ما ينص ابن وهب على أنه سأل ابن زيد عن كذا وكذا من قول الله ، وقد يورد ابن وهب نص السؤال الذي وجهه إلى ابن زيد وجواب هذا الأخير عنه ، فيقول : قلت له _ يعني ابن زيد _ : " الفروج " (ق : 6) الشيء المتفرج بعضه من بعض ؟ قال : نعم، ويقول : قلت لابن زيد : " البهيج " (ق : 7) الحسن المنظر ؟ قال : نعم، وقد يكون السائل غير ابن وهب، ولكن ابن وهب يسمح كما حدث في تفسير " الأكمام" (الرحمن : 11) إذ قيل لابن زيد : هو الطلع ؟ قال نعم ، وهو في كم حتى ينفتق عنه (3) . وكما حدث في تفسير " الفلق " (الفلق : 1) إذ قيل له : فلق الصبح ؟ قال : نعم . وقرأ : " فالق الإصباح ، وجاعل الليل سكنا " (الأنعام : 96) . قد يتدخل ابن وهب في تفسير أستاذه مبديًا رأيه في صورة تساؤل كما حدث عندما كان ابن زيد يفسر الآية 61 من سورة البقرة : " وضربت عليهم الذلة والمسكنة " قائلا : هؤلاء يهود بني إسرائيل وقد

ينص ابن وهب على أن ابن زيد – حدثه مع آخرين، كما ينص على أنه حدثه هو، أو قال له هو، وغير مرة يذكر ابن وهب أنه سمع ابن زيد يقول ....[35]

- يكفي هذا ليثبت أن ابن وهب أخذ عن ابن زيد تفسيره كله في أثناء إقامته الطويلة جدًا بالمدينة، ولما كان ابن وهب قد اعتمد على تفسير ابن زيد بصفة أساسية، فإن ذلك التفسير قد أصبح يمثل صلب تفسير ابن وهب، ويشكل عموده الفقري، بحيث نستطيع أن نقرر أن دراسة تفسير ابن وهب، ويشكل عموده الفقري ، بحيث نستطيع أن نقرر أن دراسة تفسير ابن وهب لن تكون شيئًا آخر سوى دراسة تفسير ابن زيد، أو أننا إذا أردنا أن ندرس تفسير ابن وهب فلا مفر لنا من دراسة تفسير ابن زيد الذي حفظه لنا ابن وهب في تفسيره ثم حفظ الطبري كليهما في تفسيره الكبير جامع البيان، وهكذا تتقرر الخطوة التالية في البحث وهي أن نحاول التعرف على تفسير ابن زيد.

- وأيا كان الأمر فلا بد لنا الآن من أن نبحث منهج ابن زيد في التفسير.

- لعل أقرب مصدر أخذ عنه ابن زيد التفسير هو أبوه نفسه زيد بن أسلم (ت: 136 هـ) الذي كان رجلاً صالحًا ، ثقة ، عالمًا بتفسير القرآن، وبالرغم من أن عيينة (ت: 198 هـ) لم يطمئن تماما إلى حفظه؛ لأنه كان فيه شيء ، كما ذكر ابن عبد البر (ت: 463هـ) في مقدمة " التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد " مايدل على أنه كان يدلس ... بالرغم من ذلك وثق زيد بن أسلم عدد من كبار النقاد مثل : ابن سعد ، ابن حنبل ، أبي حاتم (ت: 277 هـ) ، وأبي زرعة، وتقديرًا لعلمه كان على بن الحسين (ت: 99 هـ) يتخطى مجالس قومه أشراف قريش ويجلس إلى زيد عبد عمر بن الخطاب (فقد كان مولاه) قائلاً لمن يلومه على ذلك : إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه في دينه . ولعل أهم ما وجه إلى زيد من نقد هو " أنه يفسر برأيه القرآن ويكثر منه "، ويبدو أن تفسيره قد ظل يتناقل حتى دون في نسخة رآها ابن النديم، كما أشار حاجي خليفة إلى هذا التفسير.

[35] (ابن أبي حاتم 4-197)

- روى عبد الرحمن _ مثله مثل أخويه الآخرين : أسامة وعبد الله _ عن أبيه العالم الكبير. وكثيرا ما كان يشير إلى أبيه وهو يلقي التفسير فيقول : " قال أبي : .... ، أو : كان أبي يقول : أو ، حدثني أبي ..... أو كان أبي يحدثنا هذا الحديث كله ، أو كان أبي وغيره من مشيختنا يقولون هذا ويتلونه علينا ، أو : قال رجل لأبي: .... فقال : ..... ، أو : ولم يكن أبي ينظر فيه إذا سئل عنه .

- ومن الممكن أن تشير الروايات القليلة التي سجلها الطبري لزيد بن أسلم إلى شيء من منهجه في التفسير، فهو لكي يوضح نسبة السموات السبع إلى الكرسي عند تفسير الآية 255 من سورة البقرة : " وسع كرسيه السموات والأرض " يروى أن النبي(ﷺ) قال : ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس.

- ولكي يزيد الأمر وضوحًا أراد أن يبين نسبة الكرسي نفسه إلى العرش فروى عن أبي ذر أنه قال : سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض.

- وفي حين لا نكاد نجد مثالاً آخر لهذا التفسير بالمأثور عند زيد _ وهو ما قد يدل على اعتماده عليه _ نجد أمثلة كثيرة لاعتماده على الاجتهاد والتفكير الذاتي في التفسير أي ما يسمى بالتفسير بالرأي، فهو يفسر : " الضالين " (الفاتحة : 7) بأنهم النصارى . وفي رأيه أن فواتح السور مثل : " ألم ذلك الكتاب " (البقرة : 1) و" ألم تنزيل " (السجدة : 1) و " ألمر تلك " (الرعد : 1) إنما هي أسماء السور، وهو يفسر الخير في الآية 33 من سورة النور : " فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرًا " قائلاً : الخير القوة على ذلك، ويحكى زيد _ في قصة يعبر بها عن مدى اعتماده على نفسه في التفسير _ بأنه التمس تفسير هذه الآية : " الذين يمشون على الأرض هونا " (الفرقان : 63) فلم يجدها عند أحد ، قال : فأتيت في النوم فقيل لي : هم الذين لا يريدون يفسدون في الأرض .

- ولم يكن يحدث قليلاً أن يفسر زيد القرآن بالرجوع إلى الاستعمال القرآني نفسه، فهو يفسر الآية 45 من سورة الإسراء : " وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا " فيقول : لا يفقهونه، ثم يوضح ذلك بقراءة الآية التالية من السورة نفسها : " وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا " قائلاً : فهم لا

يخص ذلك إليهم، ومن هذا الصنيع الذي هو نفس الوقت تفسير للقرآن بالقرآن نفسه أن رجلاً قال له : يا أبا أسامة : أرأيت قول الله جل ثناؤه : " والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون مالا يفعلون " (الشعراء : 224 _ 226).

- فقال له زيد : إنما هذا لشعراء المشركين، وليس شعراء المؤمنين، ألا ترى أنه يقول : " إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات " إلى آخره : (الشعراء : 277)، وأحس السائل بالارتياح فقال: فرجت عني يا أبا أسامة فرج الله عنك، وسأله آخر عن قول الله : " وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد . ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد . وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد " (ق : 19 _ 21)، فقال له : من يراد بهذا ؟ قال زيد : رسول الله (ﷺ) . فتساءل الرجل منكرًا : رسول الله ؟ فقال زيد : وما تنكر ؟ قال الله عز وجل :"ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى "(الضحى :7 _ 8).وكأنما لم يطمئن الرجل إلى تفسير زيد فذهب إلى العالم المدني الفقيه المحدث صالح بن كيسان(ت: 144 هـ) يسأله التفسير الصحيح، ويخبره بما قال زيد، وما إن علم ابن كيسان بتفسير زيد حتى صاح غاضبًا : وما علم زيد ؟ والله ما سن عالية ، ولا لسان فصيح ، ولا معرفة بكلام العرب، إنما يراد بهذا الكافر , ولا يقل عن هذا التفسير غرابة تفسيره الروح بالقرآن في الآية 38 من سورة النبأ : " يوم يقوم الروح والملائكة صفا " مستلا بالآية 52 من سورة الشورى : " وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان " . فمن الواضح في كلتا الحالين عدم الارتباط بين الآيات موضوع التفسير والآيات المستشهد بها.

- وقد يكتفي زيد بإيراد المعنى اللغوي فيفسره : " دلوك الشمس " (78 : الإسراء) بأنه حين تريد الشمس تغرب إلى أن يغسق الليل، قال : هي المغرب حين يغسق الليل وتدلك الشمس للغروب . ويفسر " غسق الليل " في الآية نفسها بأنه ظلمة الليل . كما يفسر " قسورة " (51 : المدثر) بأنه الأسد.

- وفي تفسير الآية 35 من سورة النور _ آية النور _ يتجه زيد اتجاهًا مجازيًا حين يفسر نور الله الذي تحدث عنه الآية بأنه القرآن ، ومثله الذي ضرب له .

- ويهتم زيد ببيان سبب النزول ، فهو يذكر مثلاً بأن النبي(ﷺ) قال لليهود : أنشدكم الله بالتوراة التي أنزلها لله على موسى يوم طور سيناء : من أهل النار الذين أنزلهم الله في التوراة ؟ قالوا : إن ربهم غضب عليهم غضبة ، فتمكث في النار أربعين ليلة ، ثم نخرج فتخلفوننا فيها . فقال رسول الله (ﷺ) : كذبتم . والله لا نخلفكم فيها أبدًا، فنزل القرآن تصديقا بقول النبي(ﷺ) وتكذيبًا لهم : " وقالوا : لن تمسنا النار إلا أياما معدودة. قل : أتخذتم عند الله عهدًا فلن يخلف الله عهده ، أم تقولون على الله مالا تعلمون ؟ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته ، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون " (البقرة : 80 _ 81).

- وقد يسجل زيد معلومات تاريخية هامة تتعلق بموضوع الآية التي يفسرها ، فقد شرح طريقة تضعيف الربا في الجاهلية الذي تنهى عنه الآية 130 من سورة آل عمران : " يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة، واتقوا الله لعلكم تفلحون " ، فقال : إنما كان الربا في الجاهلية في التضعيف وفي السن، يكون للرجل فضل دين فيأتيه إذا حل الأجل فيقول له : تقضيني أو تزيدني، فإن كان عنده شيء قضى، وإلا حوله إلى السن التي فوق ذلك : إن كانت ابنة مخاض يجعلها ابنة ليون في السنة الثانية ، ثم حقة ثم جذعة ، ثم رباعيا ، ثم هكذا إلى فوق وفي العين يأتيه فإن لم يكن عنده أضعفه في العام القابل ، فإن لم يكن عنده أضعفه أيضًا ، فتكون مائة فيجعلها إلى قابل مائتين، فإن لم يكن عنده جعلها إلى قابل مائتين ، فان لم يكن عنده جعلها أربعمائة ، يضعفها له كل سنة أو يقضيه . قال : فهذا قوله : " لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة " (آل عمران:130)

- ومن أمثلة التفسير الفقهي عند زيد أنه كان يقول : كل شيء كان دون أن يعزما عقدة النكاح فهو ما قال الله تعالى ذكره : " ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء" (البقرة : 235) . وفي تفسير الآية 32 من سورة المائدة :

- " من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا " كأن يقول : " يجب عليه من القتل مثل لو أنه قتل الناس جميعًا".

- ويبدو أن زيدًا كان يجد متعة خاصة في تفسير قصص القرآن، فإن ابنه عبد الرحمن يذكر أنه كان يحدثهم حديث سليمان وبلقيس، ومن حديثه عن الهدية التي أرسلتها، والتي أشارت إليها الآية 35 من سورة النمل : " وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون " إنها كان فيها وصائف ووصفاء يختلفون في ثيابهم ليميز _ أي سليمان _ الغلمان من الجواري. قال : فدعا بماء فجعل الجواري يتوضأن من المرفق إلى أسفل ، وجعل الغلمان يتوضأون من المرفق إلى فوق . كما كان زيد يذكر أن قارون خرج في سبعين ألفا عليهم المعصفرات تفسيرًا للزينة التي تشير إليها الآية 79 من سورة القصص : " فخرج على قومه في زينته "

- وبالرغم من ذلك كان من القرآن ما يمتنع زيد عن تفسيره فكان يرفض تفسير الآيتين1، 2 من سورة العاديات : " والعاديات ضبحا . فالموريات قدحا " وما شاكلها ، ويقول : هو قسم أقسم الله به .

- وأيا كان الأمر فإن الذي يعنينا هو أن عبدالرحمن بن زيد تأثر بأبيه في التفسير تأثرًا واضحًا، وعندما جلس للتفسير اصطنع منهجه وترسم خطاه، وإذا كان قد عيب على زيد بن أسلم أنه " يفسر برأيه القرآن ويكثر منه " فإننا لا نكاد نجد لابنه عبد الرحمن من التفسير بالمأثور سوى ذلك الحديث الذي يرويه عن أبيه الذي يرويه بدوره عن النبي في تفسير الآية 255 من سورة البقرة : " وسع كرسيه السموات والأرض " . وقد أشرنا منذ قليل إلى المواضع التي ذكر فيها أنه قد سمع التفسير عن أبيه، وفيما عدا ذلك يعتمد عبد الرحمن _ فيما تشهد مئات الروايات التي سجلها له الطبري عن طريق ابن وهب _ على تفكيره الذاتي واجتهاده الشخصي في فهم النص المقدس، بمعنى أنه _ كأبيه _ يفسر برأيه القرآن . فكيف قام ابن زيد بهذا العمل الكبير ؟

اعتمادا على الفهم الخاص المستند إلى المنطق السليم والمعرفة بالدين نرى ابن زيد يذهب في تفسير سورة الفاتحة إلى أن " الصراط المستقيم " هو الإسلام اليهود ، و " الضالين " هم النصارى، وهو يرى أن المنافقين يريدون الأنداد التي تذكرها الآية 22 من السورة نفسها : " فلا تجعلوا لله أندادا " هي الآلهة التي جعلوها، معه وجعلوا لها مثل ما جعلوا له، وفي رأيه أن الطهارة التي توصف بها أزواج المؤمنين في الجنة في الآية 25

من سورة البقرة : " ولهم فيها أزواج مطهرة " هي عدم الحيض ، ذلك بأن أزواج الدنيا ليست بمطهرة ، ألا تراهن يدمين ويتركن الصلاة والصيام ؟ . والأسماء التي علمها الله آدم كلها _ البقرة : 31 _ هي أسماء ذريته أجمعين .

وقد يميل ابن زيد إلى شيء من التفصيل في التفسير . فيقول في تفسير الآية 213 من سورة البقرة : " فهدى الله الذين آمنوا للإسلام. واختلفوا في الصلاة فمنهم من يصلي إلى المشرق ، ومنهم من يصلي إلى بيت المقدس ، فهدانا للقبلة.

واختلفوا في الصيام فمنهم من يصوم بعض يوم وبعضهم بعض ليلة، وهدانا الله له . واختلفوا في يوم الجمعة فأخذت اليهود السبت، وأخذت النصارى الأحد فهدانا الله له، واختلفوا في إبراهيم فقالت اليهود : كان يهوديًا ، وقالت النصارى : كان نصرانيًا ، فبرأه الله من ذلك وجعله حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين الذين يدعونه من أهل الشرك، واختلفوا في عيسى فجعلته اليهود لفرية ، وجعلته النصارى ربًا ، فهدانا الله للحق فيه، فهذا الذي قال جل ثناؤه : " فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه " (البقرة:213)

ويوضح وجهة نظر منكري البعث التي سجلتها الآية 37 من سورة المؤمنون: " إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما نحن بمبعوثين " فيقول : ليس آخرة ولابعث، يكفرون بالبعث . يقولون : إنما هي حياتنا هذه ثم نموت ولانحيا. يموت هؤلاء ويحيا هؤلاء ، يقولون : إنما الناس كالزرع : يحصد هذا وينبت هذا يقولون : يموت هؤلاء ويأتي آخرون.

تقول الآية 58 من سورة القصص : " وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ، فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً ، وكنا نحن الوارثين " . ويوضح ابن زيد كيف يكون البطر _ بما هو حالة نفسية تؤدي إلى انحرافات سلوكية _ عاملاً في انحلال المجتمعات فيقول : البطر أشر أهل الغفلة وأهل الباطل ، والركوب لمعاصي الله . وقال : ذلك البطر في النعمة . " فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا " يقول : فتلك دور القوم الذين أهلكناهم بكفرهم بربهم ومنازلهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا، يقول : خربت من بعدهم فلم يعمر منها إلا أقلها وأكثرها خراب، ولفظ الكلام _ وإن كان خارجًا على أن

مساكنهم قد سكنت قليلاً _ فإن معناه: فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً منها، كما يقال : قضيت حقك إلا قليلاً منه . وقوله : " وكنا نحن الوارثين " يقول : ولم يكن لما خربنا نم مساكنهم منهم وارث ، وعادت كما كانت قبل سكناهم فيها لامالك لها إلا الله الذي له ميراث السموات والأرض .

وقد يرد ابن زيد تفسير المفسرين الآخرين _ فحين قال بعضهم إن السري المذكور في الآية 24 من سورة مريم : " قد جعل ربك تحتك سريا " هو النهر الصغير ، ذكر ابن زيد رأيه فقال : يعني نفسه . قال : وأي شيء أسرى منه ؟ ثم نقد الرأي السابق قائلاً : والذين يقولون: السري هو النهر ليس كذلك النهر، لو كان النهر لكان إنما يكون إلى جنبها ، ولايكون النهر تحتها، وفي تفسير " سجين " المذكورة في الآيتين 7 _ 8 من سورة المطففين : " إن كتاب الفجار لفي سجين. وما أدراك ما سجين " يعرض ابن زيد بآراء جمهرة المفسرين الذين يذهبون إلى أن سجينا الأرض السافلة أو السابعة ، مقررًا أن سجينا بالسماء الدنيا.

غير أن ابن زيد قد يذهب في الاعتماد على الرأي إلى حد الإغراب والبعد عن المعنى الأقرب إلى السياق . تصف الآية 175 من سورة البقرة الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنًا قليلاً ، بأنهم" اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة ، ثم تتعجب في تهكم من قوة احتمالهم عذاب النار الذي ينتظرهم : " فما أصبرهم على النار". غير أن ابن زيد لا يجد هنا معنى التعجب، بل هذا الاستفهام ، يقول : ماهذا الذي صبرهم على النار حتى جرأهم فعملوا بهذا؟ ولكن من الحق أن مفسرين آخرين_عطاء (ت: 114 هـ) ، السدى (ت: 127هـ) وأبا بكر بن عياش (ت: 193 هـ)_ يشتركون معه في هذا القول.

المبحث الثاني

الإمام الشافعي (150 -204 هـــ)

كان الشافعي يرى في القرآن المصدر الأعلى للعلم الإسلامي, فإن جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة وجميع السنة شرح للقرآن، كما كان يرى أن جميع ما حكم به النبي فهو مما فهمه من القرآن، وبالتالي كان عليه هو كفقيه أن يتصل بالقرآن اتصالاً وثيقاً، فكان في الأيام العادية يختم في كل ليلة ختمة.

ويبدو أن الشافعي قد استطاع أن يحيط بمعاني القرآن في زمن مبكر، بحيث أصبح محل ثقة عالم مكة الكبير سفيان ابن عيينة (ت: 198 هـــ) الذي تزعم إحدى الروايات أنه كان إذا جاءه شيء من التفسير أو الفتيا التفت إلى الشافعي فقال : ساوا هذا الغلام .

مرحلة الشباب – طبقا لرواية أخرى عندما كتب إليه الإمام الحافظ عبد الرحمن بن مهدى (ت: 198هـ) أن يضع له كتابًا فيه معاني القرآن, ويجمع فنون الأخبار فيه, وحجة الإجماع, وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة، فوضع له كتاب الرسالة، وانتهى الأمر بالشافعي إلى اعتقاد أنه قد أحاط بالكتاب الكريم إحاطة شبه كاملة، فما يغيب عنه منه سوى حرفين، ولما كان يعتقد إلى جانب ذلك أنه ليست تنزل بأحد في الدين نازلة إلا في كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها، فقد قال مرة بمكة : سلوني عما شئتم أخبركم عنه من كتاب الله . ولما دخل الشافعي مصر سنة 198 هـ ظل على صلته الوثيقة بالقرآن، فقلما كان يدخل عليه تلميذه الربيع بن سليمان (ت: 270هـ) إلا والمصحف بين يديه يتتبع أحكام القرآن . والتزم أن يلقى دروسًا يومية في التفسير في المسجد, فكان إذا صلى الصبح يجلس في حلقته فيجيئه أهل القرآن، فإذا طلعت الشمس قاموا، أما المقيمون بعيدًا عن العاصمة، فكانوا يكتبون إليه يسألونه عن معنى الآيات، ولعل تلميذه يونس بن عبد الأعلى قد عبر عن الإعجاب العام بقوة تفسير أستاذه ودقته حين قال : كان الشافعي إذا أخذ في التفسير كأنه شهد التنزيل .

حرص الشافعي على فهم القرآن بما هو النبع الأصيل للدين والمصدر الأول للتعاليم والأحكام التي توجه وتضبط وتقيم سلوك الفرد المسلم وعلاقته, أدى به إذن إلى ممارسة

التفسير ممارسة فعلية، وبالرغم من أنه لم يفعل ذلك للتفسير في ذاته، وبالرغم من أنه لا يشغل مكاناً بين المفسرين المتخصصين، فلابد لنا من التوقف عنده ونحن نؤرخ لحركة التفسير في مصر ذلك بأن الشافعي قد أبدى من التصميم على فهم القرآن، وبذل من الجهد في ذلك مالم يؤلف من غير المتخصصين فقهاء كانوا أو غير فقهاء بل إنه لم يكن ليدرس قراءة ابن قسطنطين المكية التي حملها معه إلى مصر وعدمها فيها لولا أنها خطوة لا بد منها نحو فهم القرآن وعلينا الآن , على أي حال , أن نعرف كيف قام الشافعي الفقية بهذه المهمة الجلية , مهمة فهم الكتاب الكريم.

لما كانت السنة – فيما يرى الشافعي – تتضمن الشرح لكتاب الله فقد كان طبيعيًا جدًا أن تكون أقرب مرجع يبحث فيه عن معاني ذلك الكتاب فالسنة بينت فيما يتعلق بالآية 11 من سورة النساء : (ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد) الآية . أنه إنما أريد بها بعض الوالدين والأزواج دون بعض, كما بينت أن الوصايا يقتصر بها على الثلث ولأهل الميراث الثلثان .

وقالت الآية 103 من السورة نفسها : " إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا "فبين رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن الله عز وجل تلك المواقيت , وصل الصلوات لوقتها . تقول الآية 6 من سورة المائدة وهي تحدد فرائض الوضوء : " وامسحوا برءوسكم " . والسنة دلت على أن ليس على المرء مسح رأسه كله . وبذلك يكون معنى الآية أن من مسح شيئًا من رأسه أجزأه . وتقول الآية نفسها : "وأن كنتم مرضى , أو على سفر , أو جاء أحد منكم من الغائط , أولامستم النساء فلم تجد واماء فتيمموا صعيدا طيبا " . ولما لم يكن الشافعي يعلم من السنة دليلاً على أن لبعض المسافرين أن يتيمم دون بعض فكان ظاهر القرآن أن كل من سافر سفرًا قريبًا أو بعيدًا يتيمم، واحتمل قوله : " ومن الليل فتجهد به نافلة لك " (الاسراء :79) أن يتهجد بغير الذي فرض عليه مما تيسر منه، فكان الواجب طلب الاستدلال بالسنة على أحد المعنيين، فوجدنا سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تدل على أن لا واجب من الصلاة إلا الخمس، ويروى الشافعي في تفسير الآية 3 من سورة البروج : " وشاهد ومشهود " أن النبي قال : شاهد : يوم الجمعة , ومشهود : يوم عرفة .

والصحابة هم المصدر التالي للشافعي في البحث عن معاني القرآن، فهو يروى مثلاً عن على أن الصلاة الوسطى المذكورة فى الآية 238 من سورة البقرة: (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) هي صلاة الصبح، وهو يشير إلى اختلاف بعض الصحابة حول هذه المسألة مصرحًا بأنه يذهب إلى تفسير على اليمين ؟ – ربما بخصوص الآية 225 من سورة البقرة أو الآية 89 من سورة المائدة وهو الأرجح : " لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم " – صرح بأنه يذهب إلى قول عائشة : لغو اليمين : قول الإنسان لا والله , وبلى والله، وفي تفسير الآية 127 من سورة النساء : " ويستفتونك في النساء , قل الله يفتيكم فيهن " الآية ذكر يونس بن عبد الأعلى أن الشافعي قال : قول عائشة (رضي الله عنها) أثبت شيء فيه وذكر في قولها حديث الزهري، ويروى الشافعي عن ابن عباس ما لحظه من استعمال (الريح) في القرآن في مواطن العذاب في حين تستعمل " الرياح ".

للتعبير عن الرحمة والخير . قال ابن عباس : في كتاب الله عز وجل : " إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً " (القمر 19) و " أرسلنا عليهم الريح العقيم " (الذاريات 41) . وقال " وأرسلنا الرياح لواقح " (الحجر : 22) و : "أرسلنا الرياح مبشرات " . (الروم : 46) . كما يروى عنه خبراً طويلاً يتضمن تفسير الآية 162 – 166 من سورة الأعراف .

يأتي من مصادر الشافعي في فهم القرآن بعد هذا مصدر يتكون من مجموعة من أبرز تلاميذ ابن عباس نفسه، فهو يروى عن سعيد بن جبير – تلميذ ابن عباس , واحد الطرق إليه , وكان ابن عباس يثني عليه بأنه أوثق حجج الدين أنه قال في تفسير السبع المثاني في الآية 87 من سورة الحجر : (ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم) : هي أم القرآن، وقرأها حتى ختمتها , ثم قال : (بسم الله الرحمن الرحيم) الآية السابعة . وذكر ابن تيمية (ت: 728 هـ) وصاحب كشف الظنون (ت: 1067 هـ) أن الشافعي كان يعتمد على تفسير مجاهد التلميذ الأكبر لابن عباس فمن ذلك ما يوريه عنه من أنه كان يقول : (الرعد) (البقرة : 19 ,20. الرعد : 12 . النور : 43 . الروم : 24) : أجنحة الملك يسقن السحاب، وهكذا يكون الشافعي قد اعتمد في فهم القرآن – بعد النبي

والصحابة – على مدرسة ابن عباس المكية وهذا طبيعي تماما، فهو قد نشأ في مكة وتتلمذ على أساتذتها، وإذا كان الشافعي قد أحضر معه القراءة المكية إلى مصر ومثلها بها, فإنه حمل إليها كذلك المدرسة المكية في التفسير ومثلها بها .

ومما له أهمية على أي حال أن الشافعي لا ينسى نفسه أمام هيبة الرواية, فكثيرًا ما يعلق على ما يروى بما يدل على التدبر والمناقشة والمقارنة, فيقول : وإلى هذا نذهب, أو : ولا أعلم الآية تحتمل معنى غير جملة ما قال , أو : أما الذي نذهب إليه فما قالت عائشة , أو ليس فيه إلا قول عائشة , أو : ويشبه ما قال مجاهد ما قال النبي أو : ما أشبه ما قال مجاهد بظاهر القرآن , أو : وهذا – إن شاء الله – كما قال مجاهد، وما قال عكرمة فيه أوضح وإن كان هذا واضحًا أو : وكذلك قال مقاتل، وتقصى مقاتل فيه أكثر من تقصه ابن عباس، أو التنزيل يدل على ما قال مقاتل .

أن الشافعي كان من أشعر الناس وآدب الناس، ولما دخل الشافعي مصر كان يقيم بها عالم اللغة والنحو والأخبار والأنساب عبد الملك بن هاشم (ت: 218 هـ) صاحب السيرة النبوية، وعندما رأى ابن هشام الشافعي بهرته شخصيته، فقال : ما ظننت أن الله خلق مثل الشافعي ثم كانا يجتمعان فيتناشدان الأشعار, ويتذاكران أنساب الرجال والنساء ولمس ابن هشام تمكن الشافعي من اللغة فاتخذ قوله فيها حجه, جعل منه مرجعًا يرجع إليه إذا شك في شيء منها , ونبه الناس إلى أن لسان الشافعي لغة ليكتبوه غيره أحسن منها .

المبحث الثالث :عبد الله بن وهب (125- 197 هـ)

كان هناك شاب مصرى، مخلص متحمس، شديد الرغبة فى تحصيل العلوم الدينية الرئيسية: الحديث، والفقه، والقراءة، والتفسير ولما كانت المدينة ما تزال العاصمة الروحية والفكرية للعالم الإسلامى حينذاك، فقد شد عبد الله بن وهب –وكان هذا اسمه – إليها الرحال عام 148هـ وهو لا يزال فى ربيعه الثالث والعشرين، الحماس ملء صدره والحيوية ملء عروقه، وتشتغل روحه بالشوق المقدس إلى المعرفة، هذا وفى المدينة رجال تضرب إليهم أكباد الإبل وتقطع فى سبيلهم المفاوز، من مثل : نافع شيخ القراء فى زمانه (ت: 169هـ) ، ومالك إمام المدينة وعالمها ومفتيها (ت: 179هـ) ، وعبد

الرحمن بن زيد المفسر الكبير (ت: 182هـ) [36]، كما كان لا يزال فيها أكثر من عشرين رجلا من أصحاب ابن شهاب الزهرى حافظ أهل زمانه (ت: 124هـ) [37]، ولم يكن عبد الله فى عجلة من أمره ، ولا سمح للحنين المصرى بأن يعجل بعودته إلى أرض النيل فجلس إلى هؤلاء الجلة من الشيوخ فأطال الجلوس، واستمع فأحسن الاستماع حتى ليقال أنه بقى بالمدينة حتى وفاة أستاذه مالك(179هـ) الذى دامت صحبته إياه عشرين عاما [38] ،على أن الطالب المصرى الجاد لم يقتصر على الشيوخ المدنيين، فقد تتلمذ كذلك على علماء مكة والعراق من مثل: ابن جريح (ت: 149هـ) ، وسفيان الثورى (ت: 161هـ) ، وسفيان بن عيينة (ت: 198هـ) [39]، هذا بالإضافة إلى شيوخ المصريين، من مثل: عمرو بن الحارث (ت: 148هـ) ، وحيوة بن شريح (ت: 158هـ) ، وابن لهيعة (ت: 174هـ) ،والليث بن سعد (ت: 175هـ) [40] . وكان حصاد ذلك الطلب الدائب الذى أنفق فيه ابن وهب زهرة شبابه مائة ألف حديث رواها عن نحو أربعمائة شيخ من المصريين والحجازيين والعراقيين [41]، ومهما كانت فى هذه الأرقام من مبالغة واضحة، فالذى لا شك فيه هو أنا الأمر انتهى بابن وهب إلى أن أصبح من أبرز الشخصيات العلمية فى العالم الإسلامى، وصفه أستاذه مالك بأنه "عالم" [42]، بل بأنه "إمام " . [43]

كان طبيعيًا ، مع ذلك التحصيل الطويل الغزير . أن يتجه ابن وهب إلى الإنتاج العلمى، وهو يعد ممن جمع وصنف [44] ، بل إنه يعد بين أوائل من صنف ليس فى مصر فحسب بل فى العالم الإسلامى كله مثله مثل مالك بن أنس وسفيان ابن عيينة[45] ، وله تصانيف كثيرة [46]، ومصنفات فى الفقه معروفة[47] ، وأيا كان الأمر فقد ألف ابن

36 ابن النديم الفهرست :225 . ابن حجر :ت :التهذيب -6 :177 وما بعدها .
37 ابن خلكان : وفيات -1 :249 . ابن تغرى بردى : النجوم -1 : 294.
38 ابن خلكان : وفيات -1 : 249 . ابن فرحون :الديباج : 132.
39 ابن حجر : ت . التهذيب -6 :71 .
40 ابن حجر : ت . التهذيب -6 :71.
41 الذهبى :تذكرة -1 :278 . ابن فرحون :الديباج :132 ، ابن حجر : ت . التهذيب -6 :72 ،السيوطى : حسن -1 :121.
42 ابن خلكان : وفيات -1 :249 . الذهبى :تذكرة -1 :179.
43 ابن خلكان : وفيات -1 :249.
44 السمعانى : الأنساب :434 ب .
45 حاجى خليفة : كشف -1 : 34 .
46 السيوطى : حسن -1 : 121

وهب تآليف كثيرة حسنة عظيمة المنفعة منها: سماعه من مالك: ثلاثون كتابًا ، موطئوه الكبير ، جامعه الكبير وكتاب الأهوال وبعضهم يضيفه إلى الجامع ، كتاب تفسير الموطأ ، كتاب البيعة ، كتاب لا هام ولا صفر وكتاب المناسك ، كتاب المغازى ، وكتاب الردة [48] . ويغلب أن كان له كتاب فى التاريخ . [49]

ولما كان ابن وهب– مثله مثل المصنفين الأوائل – مطمح نظره فى التدوين ضبط معاقد القرآن والحديث ومعانيهما [50] ، فقد حرص على أن يؤلف تفسيرًا للقرآن الكريم أشار صاحب كشف الظنون إليه مرتين [51] ، وقد ضاع هذا التفسير فى صورته المستقلة، غير أننا نستطيع لحسن الحظ استخراجه استخراجًا يكاد يكون كاملاً من تفسير الطبرى الذى ندين له بصيانة كثير من التفاسير القديمة من الضياع ، حين عنى بتسجيل الكثير من رواياتها ، مثل تفسير : مجاهد (ت: 103هـ) ، وعكرمة (ت: 105هـ) ، والضحاك بن مزاحم (ت: 105هـ)، وعطية العوفى (ت: 111هـ) ، وعطاء بن أبى رياح (ت 114هـ) ، وقتادة (ت: 117هـ) ، ومحمد بن كعب القرظى (ت: 117هـ) ، والسدى (ت: 127 هـ)، وعبد الرحمن ابن زيد (ت: 182هـ) .

بالنظر فى روايات ابن وهب التى حفظها الطبرى فى تفسيره يتضح للوهلة الأولى أنها ترجع إلى مصادر تنتمى إلى أهم المراكز الإسلامية ، فهو يروى أولاً عن النبى (ﷺ) [52] ، ثم يروى من أهل المدينة عن : أبى بكر (ت: 12هـ) [53]، وكعب الأحبار (ت:32هـ) [54] ، وعبادة بن الصامت (ت: 35هـ) [55]، وعلى ابن أبى طالب (ت:

---

47 ابن خلكان : وفيات (ط. النهضة) -2 :241

48 ابن فرحون : الديباج :133.

49 كست : مقدمة الولاة والقضاة :38.

50 حاجى خليفة : كشف -1 :34.

51 1 : 440 و 2: 350.

52 الطبرى : جامع البيان -1 : 36 ، 242 و 2 : 136 و 5 :160 و 11 :74 و 12 : 53 و 14 : 40 -41 و 16 : 86 : و 21 : 67 و 25 : 92 و 29 : 16.

53 المصدر نفسه -10 : 96

54 المصدر نفسه -1 : 46 و 5 : 157 و 16 : 72 و 23 : 52 و 27 : 31 و 30 : 60 ، 64 -65 .

55 المصدر نفسه -29 : 50

40هـ) [56]، وزيد بن ثابت (ت:45هـ) [57]، وسعد بن أبى وقاص (ت: 55هـ) [58]، وعائشة (ت:58هـ) [59]، وأبى هريرة

المبحث الرابع

أبو جعفر النحاس (ت: 338هـ)

لعله آخر المفسرين العظام فى الفترة التى ندرسها ، ذلك هو أبوجعفر النحاس ، أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادى ، والذى تتلمذ على كبار الأساتذة المصريين فأخذ التفسير عن بكر بن سهل الدمياطى (ت: 289هـ) ، والحديث عن النسائى الذى عاش فى مصر منذ عام 264 هـ تقريبا حتى 302هـ ، وقراءة ورش عن أبى بكر بن سيف (ت: 307هـ) ، والفقه عن رئيس الأحناف المصريين أبى جعفر الطحاوى (ت: 321هـ) ، هذا وحرص أبو جعفر على أن يسافر إلى بغداد – عاصمة الدنيا حينذاك علما وأدبًا وفنًا – حيث تتلمذ فى اللغة والنحو والقراءات على كبار الأساتذة من مثل : الزجاج (ت: 311هـ) ، والأخفش الأصغر (ت: 315هـ) ، ونفطويه (ت: 323هـ) ، وأبى بكر الداجونى (ت: 324هـ) [60] ، وابن الأنبارى (ت: 328هـ) ، وابن شنبوذ (ت: 328هـ) .

كان التتلمذ على أساتذة العصر هؤلاء إجازة كافية ليجلس أبو جعفر فى مصر مجلس الأستاذ يحاضر ويؤلف فى العلوم التى أخذها عنهم، وما بقى لنا من مؤلفاته التى يقال أنها تجاوزت الخمسين ، أو من أسمائها، يدل على تمكنه من علوم اللغة والنحو والقرآن، فهو قد شرح المعلقات السبع ، والمفضليات ، وعشرة دواوين، وأبيات كتاب سيبويه، وألف فى النحو أكثر من كتاب، كما ألف فى الأدب وتاريخه وفى تفسير القرآن وعلومه .

---

[56] المصدرنفسه -2 : 71 ، 126 و 16 : 26 ، 27 و 26 : 116 ، 117

[57] المصدر نفسه -2 267

[58] المصدر نفسه -6 : 61

[59] المصدر نفسه -2 : 31 ، 171 ، 245 ، 261 و 4 : 155 و 5 : 69 ، 197 و 18 : 94 و 21 : 101 و 27 : 27 و 29 : 13 و 30 : 161 -162 . وانظر كذلك : مسلم : صحيح -18 : 154 .

[60] قد يكون لقيه بالرملة موطنه أيضا ، ص 4 من كتابه معانى القرآن وما يشير إليه إلى أنه سمع بها.

كتاب معانى القرآن فى التفسير كما يدل عليه اسمه ولا يوجد منه بدار الكتب المصرية سوى الجزء الأول الذى يشتمل على تفسير القرآن من سورة الحمد ،أى الفاتحة ، حتى سورة مريم، ويقع فى 232 ورقة مقاس 21× 17 سم، وخطه نسخى قديم ممكن القراءة يرجع إلى القرن الخامس [61]، أما النسخة المصورة بالفوتوستات فهى عسيرة القراءة.

وفى خطبة الكتاب يرسم أبو النحاس منهجه فيه أو– فى الأصح –فى التفسير فيقول:

فقصدت فى هذا الكتاب تفسير المعانى، والغريب ، وأحكام القرآن ، والناسخ والمنسوخ عن المتقدمين من الأئمة ، وأذكر من قول الجلة من العلماء باللغة وأهل النظر ما حضرنى، وأبين تصريف الكلمة واشتقاقها إن علمت ذلك، وآتى من القراءات بما يحتاج إلى تفسير معناه، وما احتاج إليه المعنى من الإعراب، وما احتج به العلماء فى مسائل سأل عنها الملحون، وأبين (ما فيه) حذف لاختصار، أو إطالة لإفهام، وما كان فيه تقديم وتأخير . وأشرح ذلك حتى يتبينه المتعلم وينتفع به كما ينتفع العالم بتوفيق الله وتسديده [62].

وتفسير سورة الفاتحة نموذج جيد وإن لم يكن كاملاً –لتطبيق العمل لهذا المنهج .

يبدأ أبو جعفر بشرح البسملة بما هى آية مستقلة، فيذكر أن أكثر البصريين قالوا: المعنى أول ما أفتتح به : بسم الله ، وأول كلامى : بسم الله ، ثم ينتقل إلى قولين : أحدهما أنه من السمو والارتفاع – فقيل : اسم، لأن صاحبه بمنزلة المرتفع به، وقيل : هو من : وسمت ، فقيل :اسم، لأن صاحبه بمنزلة السمة أى يعرف به، ويدلى أبو جعفر برأيه فى هذين القولين فيحكم بأن القول الثانى خطأ؛ لأن الساقط منه– من اللفظ :اسم –لامه– أى الحرف الثالث – وهو هنا : الواو –فصح أنه من : سما يسمو، وأحمد بن يحيى –ثعلب (ت: 291هـ) –يقول بما يؤكد رأى أبى جعفر من جهة، ويضيف جديدًا من جهة أخرى – إنه يقال: "سِمٌ ، وسَمُ . ويقول اسم ، بكسر الألف ، ويقال بضمها . فمن ضم الألف أخذه من : سموت أسمو، ومن كسره أخذه من :سميت أسمي.

61 فؤاد سيد :فهرس مخطوطات دار الكتب :القسم الثالث :74.

62 أبو جعفر النحاس، معانى القرآن : ظهر الغلاف.

وفى تفسير لفظ الجلالة ينتقل أبو جعفر عن الكسائى (ت: 189هـ) والفراء (ت: 207هـ) أن معنى " بسم الله " : باسم الإله ، وتركوا الهمزة وأدغموا اللام الأولى فى الثانية فصارتا لاما مشددة كما قال عز وجل :" لكنا هو الله ربى" (الكهف :38) ومعناه : لكن أنا . كذلك قرأها الحسن ، ولسيبويه (ت: 180هـ) فى أصل لفظ الجلالة قولان يذكرهما أبو جعفر بعد ذلك : أحدهما أن الأصل :إلاه ، ثم جئ بالألف واللام عوضًا عن الهمزة، وكذلك (الناس) عنده الأصل فيه : إناس والقول الآخر– وهو أيضًا قول أصحابه – أن الأصل :لاه ، ثم دخلت عليه الألف واللام وأنشدوا:

لاه ابن عملك لا أفضلت فى حسب عنى، ولا أنت ديانى فتخرونى [63]

ولما كان تكرار صفة الرحمة فى قوله عز وجل :" الرحمن الرحيم " مما يسأل عنه– ربما من الملحدين المشار إليهم فى المقدمة– فإن أبا جعفر يقف وقفة غير قصيرة ليعرض أقوال العلماء فى هذه المسألة ويناقشها ويعقب عليها، فيذكر أنه روى عن ابن عباس أنه قال : الرحمن الرحيم: اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر فالرحمن الرقيق ، والرقيق [64] العاطف على خلقه بالرزق.

على أن أبا جعفر يلتزم فى تفسيره بمبدأين بارزين : أولهما :النقل ، وقد بينا فيما مضى [65] كيف أن التفسير المقبول عنده هو التفسير المأثور دون غيره، وثانيهما : الاتفاق مع اللغة السليمة شعرها ونثرها، وفى النماذج التى قدمنا من تفسيره ما يوضح هذا، وينبغى هنا أن نضيف أن أبا جعفر فى استعانته بالشعر على تفهم الأسلوب القرآنى يشترط ألا يحمل كتاب الله على ما يرد فى هذا الشعر من شذوذ [66] أو ضرورة [67]. كما أنه فى محاولاته توضيح بعض أسرار البيان القرآنى ينص على أن الواجب أن يحمل تفسير كتاب الله جل وعز على الظاهر من المعانى إلا أن يقع دليل على غير ذلك .[68]

63 أبو جعفر النحاس : معانى القرآن :1 ظ .
64 لعلها :الرحيم
65 انظر ص 416 من هذا البحث.
66 أبو جعفر النحاس : إعراب القرآن :143.
67 المصدر نفسه : 323 -324.
68 المصدر نفسه :318

وأخيراً فإننا لا نملك إلا التعبير عن الإعجاب العميق والاحترام الحقيقى لهذا العالم المصرى الجليل الذى استطاع أن يبلغ ذلك المستوى الكبير من التمكن من علوم اللغة والنحو والقراءات؛ ليستخدمها بكفاءة بارزة، وقدرة أصيلة فى فهم القرآن وتفسيره.

ولسنا نشك فى أن نشر كتب أبى جعفر الثلاثة المخطوطة (المعانى [69]، والإعراب والقطع)، وإعادة نشر كتابه المطبوع (الناسخ والمنسوخ) ضرورة علمية بالنسبة إلى تاريخ حركة الدراسات القرآنية بمصر، وواجب ثقافى بالنسبة إلى حياتنا الفكرية العامة ، وواجب قومى بالنسبة إلى هذا العالم المصرى العربى العظيم.

5- أبو بكر الأدفوى (304 -388هـ)

بالرغم من أن أبا بكر الأدفوى، محمد بن على بن أحمد ، توفى بعد انتهاء الفترة التى تدرسها بثلاثين عامًا، فإنه قد أمضى فى منطقة بحثنا، التى تبدأ بالفتح العربى سنة 20 هـ وتنتهى بدخول الفاطميين سنة 358هـ ، أكثر من نصف قرن، أو أربعة وخمسين عامًا على وجه التحديد، هذا إلى أنه التلميذ المباشر والأكبر لأبى جعفر النحاس، فقد صحبه ، وأخذ عنه وأكثر ، وروى كل تصانيفه ، وأصبح نحويًا ومفسرًا مثله.

ولم يكن أبو جعفر الأستاذ الوحيد فى حياة تلميذه أبى بكر فقد أخذ عن غيره من أهل العلم والقرآن والحديث والعربية، ولا شك فى أن ذكرى أبى بكر كانت ما تزال حية قوية فى دوائر الفسطاط العلمية عندما زارها عام 397هـ [70]، أى بعد وفاته بسبع سنوات فقط، العالم الأندلسى الدقيق أبو عمرو الدانى (ت: 444هـ) الذى وصف أبا بكر بالانفراد بالإمامة فى قراءة نافع ، وسعة العلم، وبراعة الفهم، والنهجة، وحسن الاطلاع ، والتمكن من علم العربية ، والبصر بالمعانى ، فى حين وصفه غيره بأنه كان من أهل الدين والصلاح ، والأدب والعلم.

وانتهى الأمر بهذا العالم الصعيدى الذى نزح عن مسقط رأسه إدفو ليقيم بمصر، أى الفسطاط، إلى أن أصبح سيد أهل عصره، فى عصره وغير عصره وقرأ عليه

69 ذكر بروكلمان : تاريخ الأدب العربى -2 :276 أنه قد تقرر طبع هذا التفسير فى حيدر آباد.
70 ابن الجزرى : غاية -1 : 503.

الأجلاء، واعتاد على مجلسه الرؤساء والفضلاء، وبالرغم من ذلك كله لم يتكسب أبو بكر بعلمه، فقد كان خشابًا ينجر فى الخشب ، ولما مات دفن بالقرافة حيث ظل قبره معروفاً يزار حتى القرن التاسع الهجرى.

برع أبو بكر فى علوم القرآن ويبدو أنه قد سجل كل ما حصله من هذه العلوم، تفسيراً كانت أو قراءة أو غيرها فى كتاب ظل يعمل فيه اثنتى عشرة سنة وسماه : الاستغناء فى علوم القرآن ، مما يوحى بأنه أراد له أن يكون دائرة قرآنية تغنى عن كل ما عداها فيما يتعلق بالقرآن، ويرجح ذلك ضخامة هذا الكتاب ، فقد بلغ مائة وعشرين مجلدًا أو مائة فقط فى الأقل.

ووصف القفطى (ت: 646 ه) كتاب الاستغناء هذا بأنه أكبر كتاب صنف فى التفسير، جمع فيه من العلوم ما لم يجتمع بغيره، وذكر أن القاضى الفاضل (ت: 596هـ) وقف نسخة منه على مدرسته بالقاهرة المعزية حيث رآه القفطى مذكورًا فى فهرست مكتبتها، وذكر الذهبى (ت: 748هـ) أن هذا الكتاب موجود بالقاهرة، ولعل هذا الكتاب هو نفس كتاب التفسير الذى ذكر ياقوت أنه فى خمسة مجلدات كبار، ومن المؤسف أن هذا الكتاب قد ضاع وربما قد أهمله الناس بسبب ضخامته .

وإذا عرفنا أن أبا بكر الأدفوى فى تلمذته على أبى جعفر النحاس قد حمل عنه كتبه، وروى عنه كتابه معانى القرآن – وإن كان فاته عليه من سورة الحشر – كان لنا أن نتوقع أنه سجل فى كتابه هذا الكبير كل ما روى عن أستاذه من كتبه التى ألفها فى الدراسات القرآنية .[71]

وهكذا نفرغ من أولئك الرجال المصريين الذين صحبناهم فى رحلتهم الطويلة عبر الزمن، ورأينا إليهم وهم يحملون على عوانقهم ذلك العبء النبيل : عبء تفهم الكتاب الكريم، واستيعاب ما ورد فيه، ونقله إلى الآخرين والإضافة –كلما أمكن –إليه.

ويبقى علينا أن ننظر فيمن قدم إلى مصر من هذا الطراز من الرجال، فأخذ عن علمائها، أو أخذوا هم عنه.

---

[71] ياقوت : م . البلدان -1 :168 -169 . القفطى: إنباء : -3 : 186- 188 -الذهبى : طبقات القراء - 1 : 111 . ابن الجزرى : غاية -2 : 198 -199 . السيوطى : بغية : 81 .

الخاتمة

ومن خلال هذا الطرح لأعلام المدرسة المصرية في التفسير من القرن الأول تأثرًا بابن عباس ومنهجه البياني، وما جاء من مفسري البيئة المصرية من القرن الأول الهجري بداية بعطاء بن دينار الهذلي، وعبد الله بن وهب، والإمام الشافعي، وعبد الله بن صالح وغيرهم مثل الإدفوي وأبي جعفر النحاس – نجد أصحاب هذا الاتجاه البياني الذي اعتمد علي إشراقات الصياغة اللغوية في التفسير والتوقف عند جماليات البلاغة القرآنية، فأثر ذلك في توجيه القراءات، وكذلك في استنباط الأحكام الفقهية من خلال التفسير البياني، والأدبي للقرآن الكريم، وهذا ميزة خاصة للمدرسة المصرية التى ظهرت بعد ذلك بدعوة التجديد في التفسير البياني للقرآن الكريم علي الشيخ أمين الخولي، ومدرسة الأمناء في توظيف علوم اللغة العربية في خدمة التفسير القرآني للتوجيه البياني والأدبي.

ومن خلال هذا الطرح نجد المصريين استوعبوا التفاسير النقلية الموروثة منذ الإمام الشافعي إلى الإدفوي وأبي جعفر النحاس فكان توظيف علوم العربية في خدمة تفسير القرآن الكريم. مع توظيف الجوانب البيانينة في الاحكلم الفقهية والقراءات في التفسير اللغوي للقران الكريم واثر ذلك في الاعراب والدلالة الغوية ودورها في جماليات التفسير البياني للقران الكريم –الذي ظهر بمسماه علي يد حركة التجديد للتفسير علي رائد هذا الاتجاه الشيخ امين الخولي وربطها بعلوم العربية التي نشأت لخدمة التفسير القراني

مصادر البحث ومراجعه

أولاً : المصادر والمراجع العربية :

1. ابن حنبل (ت: 241هـ) : المسند (القاهرة -1946).
2. ابن سعد (ت: 230 هـ) : كتاب الطبقات الكبير (ليدن -1905- 1921).
3. ابن سلام (ت: 231هـ) : طبقات فحول الشعراء (القاهرة -1952).
4. ابن عبد الحكم (ت 257هـ) : فتوح مصر (ليدن – 1920).
5. ابن قتيبة (ت: 276هـ):

(أ) عيون الأخبار (القاهرة -1925) .

(ب) مشكل القرآن وغريبه ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة.

(ج)عيون الأخبار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة.

6. ابن هشام (ت: 218هـ) : السيرة النبوية (القاهرة -1955).
7. ابن واضح اليعقوبى (ت: 284هـ) : التاريخ (النجف -1358هـ)

أبو داود (ت: 275هـ) :

(أ) السنن (شرح محمود محمد خطاب السبكى(القاهرة -1351 هـ) .

(ب) كتاب المراسيل المنهل العذب المورود (القاهرة- 1310هـ).

8. أبو عبيد القاسم بن سلام (ت: 224هـ) : فضائل القرآن (مصور بدار الكتب المصرية).
9. أبى عبيدة : مجاز القرآن مخطوطة المجاز نسخة مصورة من الجامعة العربية .
10. أحمد أمين (ت: 1954) : فجر الإسلام (القاهرة -1955).
11. الأعشى (ت 7هـ) :الديوان (القاهرة -1950).
12. أمين الخولى (ت 1966 م) :

(أ) مادة :القرآن الكريم دائرة معارف الشعب (القاهرة -1959).

(ب) مالك بن أنس (القاهرة -1957).

(جـ) المجددون فى الإسلام (القاهرة -1965).

13. البخارى (ت: 256هـ) :

(أ) الصحيح (القاهرة -1348هـ).

(ب) كتاب الضعفاء الصغير (الهند- 1325هـ).

14. بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى: البرهان فى علوم القرآن ، طبع الحلبى بالقاهرة سنة 1957تحقيق محمد أبو الفضل.

15. برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعى: نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية- بيروت ،لبنان .
16. البلاذرى (ت: 279هـ) : فتوح البلدان (القاهرة -1956).
17. بروكلمان ، كارل (ت:1956) :(أ) تاريخ الشعوب الإسلامية (بيروت- 1948).(ب) تاريخ الأدب العربى (القاهرة- 1959).
18. ترتون ، أ. س. : أهل الذمة فى الإسلام (القاهرة -1949).
19. حسن عبد الوهاب (ت 1967): تاريخ المساجد الأثرية (القاهرة- 1946)
20. الترمذى (ت: 279هـ) : الجامع الصحيح وشرح الإمام أبى بكر بن العربى المالكى) ت 543هـ) (القاهرة -1931)
21. جمع الإمام البيهقى (صاحب السنن الكبرى –ت: 458هـ)
22. شكرى محمد عباد (دكتور):
(أ) من وصف القرآن ليوم الدين والحساب .
طبعة أولى، دار الوحدة بيروت 1980.
طبعة ثانية ، دار الوحدة بيروت 1984.
طبعة ثالثة، أصدقاء الكتاب 1995.
23. عبد الوهاب خلاف (ت: 1956): علم أصل الفقه (القاهرة- 1942)
24. طه حسين : الفتنة الكبرى :عثمان (القاهرة-1959)
25. الخطيب الإسكافى: درة التنزيل وغرة التأويل، الدار السعودية للنشر والتوزيع.
26. الدارمى (ت280 هـ) : رد الإمام الدارمى عثمان بن سعيد على بشر المريسى العنيد (القاهرة- 1358هـ).
27. الدينورى : أبو حنيفة أحمد بن داود (ت: 282هـ) : الأخبار الطوال (القاهرة -1959)
28. الرازى: التفسير الكبير، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة.
29. الزمخشرى: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ،طبعة دار الكتاب العربى، بيروت.
30. الشافعى (ت: 204هـ) :
(أ) الرسالة (القاهرة -1321هـ).
(ب) أحكام القرآن (القاهرة- 1951).
31. الفرزدق (ت: 110هـ) : الديوان (القاهرة -1936).
32. مالك (ت: 179هـ) : الموطأ (القاهرة -1951).
33. المبرد (ت: 286هـ) : الكامل (القاهرة -1955)
34. محمد إبراهيم شريف(دكتور): فى تفسير القرآن فى مصر، دار التراث ، ص- ب 1185، القاهرة.
35. محمد الصادق عرجون:نحو منهج لتفسير القرآن، الدار السعودية للنشر والتوزيع،جدة، 1977.
36. محمد رمزى (ت: 1945): القاموس الجغرافى للبلاد (القاهرة -1953- 1963).
37. محمود أحمد (ت: 1942) : جامع عمرو بن العاص (القاهرة-1938).
38. مصطفى صادق الرافعى (ت 1937): تاريخ آداب العرب (القاهرة -1940).
39. محمد المنتصر الريونى: سيد قطب ومنهجه فى التفسير ، جمعية البعث الإسلامى ، نطوان 1978.
40. محمد حسين هيكل (ت1956م): حياة محمد (القاهرة -1936.

41. محمد خلف الله أحمد (دكتور) :الفن القصصى فى القرآن الكريم ، طبع القاهرة 1957.
42. محمد شفيق غربال :الموسوعة العربية الميسرة، الدار القومية للطباعة والنشر.
43. محمد فؤاد عبد الباقى : (ت: 1986م): المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (القاهرة - 1378هـ)
44. نيكلسون ، ريتولد (ت: 1945) : فى التصوف الإسلامى وتاريخه(القاهرة -1956).
45. محمد متولى الشعراوى:
1) المرأة ، إصدارات أخبار اليوم.
(2 الرزق، إصدارات أخبار اليوم.
(3 تفسير الشعراوى جـ 4 ، 7 ، 31 ، إصدارات أخبار اليوم.
46. محمد مصطفى المراغى: تفسير المراغى ، الدروس الدينية ، مطبعة الأزهر ، القاهرة 1938.
47. محمد منيع عبد الحليم محمود (دكتور) : مناهج المفسرين ، دار الكتاب المصرى، القاهرة.
48. محمود شلتوت :
(1 الإسلام عقيدة وشريعة ، مطبعة دار الشروق.
(2 تفسير القرآن الكريم، مطبعة دار الشروق.
(3 من توجيهات الإسلام ، مطبعة دار الشروق .
49. المروزى ن محمد بن نصر (ت: 294هـ) :
(أ) كتاب الوتر (لاهور - 1320هـ) .
(ب) كتاب قيام الليل ، قيام رمضان ، كتاب الوتر – اختصرها العلامة أحمد بن على المقريزى (ت: 845هـ)
50. مسلم (ت: 261هـ) : الصحيح (شرح النووى ، ت:676هـ) (القاهرة 1929م)
51. مصطفى الصاوى الجوينى(دكتور):
(1 مدارس التفسير القرآن، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية .
(2 التفسير الأدبى للنص القرآنى، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية.
(3 منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن ، مطبعة دار المعارف .
(4 ملامح الشخصية المصرية فى الدراسات البيانية، دار المعارف.
52. مصطفى محمد الحديدى الطير: اتجاه التفسير فى العصر الحديث ، منذ عهد الإمام محمد عبده إلى التفسير الوسيط ، طبع دار الشروق.
53. النسائى (ت: 303هـ) :
(أ) السنن (القاهرة -1312هـ).
(ب) كتاب الضعفاء والمتروكين (الهند-1325هـ).
54. الواقدى : (ت: 207هـ) :
(أ) كتاب المغازى (كلكله -1855).
(ب) كتاب فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان (القاهرة-1891).
55. ياقوت الحموى: معجم الآدباء، مطبعة عيسى البابى الحلبى ، القاهرة.

ثانيًا: الدوريات

1. دائرة المعارف الإسلامية، امجد فريد وجدى، التعليق على مادة تفسير، بيروت، دار الفكر، 1979.
2. الرسالة ،العدد 74، 75 ، كامد باسرو الزينى ، 1974.

3. سلسلة الثقافة الإسلامية ، مقدمة بقلم ، محمد عبد الله السمان ، سبتمبر 1909.
4. العروة الوثقى، العدد الأول.
5. مجلة المجمع العربى ، 21- 289 ، المكتب الفنى للنشر .
6. مجلة مجمع اللغة العربية ، الجزء الثانى عشر ، مطبعة التحرير .